الرسالة



5 me Année, No. 184

Lundi - 11 - 1 - 1937

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Litteraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
ص
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

العـــدد ١٨٤ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٨ شوال سنة ١٣٥٥ — ١١ يناير سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العـــــدد

ذكرى ميـــلاد ...

فى مثل هذا الأسبوع من عام ١٩٣٢ وأنا فى دار السلام ، هبط علىّ برق الأثير هبوط الملَك البشير على زكريا الواهن اليائس . بشّرنى بأن اسمى قد اشترك ، ووجودى قد ازدوج ، وعمرى قد امتد ، وأصلى قد تفرّع ! فأخذنى شعور لا عهد لى بمثله ؛ لا أصفه لأنه أعمق من الإدراك ، ولا أنساه لأنه أوسع من الذاكرة . هو شعور خليط مبهم ؛ لا هو حماسة ، ولا هو نشوة ، ولا هو جذل ، ولا هو غبطة ؛ وإنما هو كل أولئك وشىء آخر لا أدريه ، لوّن مشاهد الطبيعة بألوان الأمل ، وعطّر نسائم (دجلة) بروائح الجنة ، وزيّن مغانى الكرخ بأوشية السحر . فخرجتُ إلى بساتين (الصالحية) وفى إهابى المشبوب رجل آخر ، يحيا لأنه يحب الحياة ، ويعمل لأنه يريد العمل ، ويُزْهَى لأنه يسعى لأُسرة . مررت بالأطفال الذين كنت أراهم كل يوم ، فبدت لى فى قسماتهم وبسماتهم معانٍ جديدة . لم يعودوا شقاء الوالدين وهمّ الحياة كما كنت أشعر ، وإنما أصبحوا كطفلى

بهجة الوجود وراحة المكدود ورجاء المستقبل ؛ ثم وجدتُنى آنس بكل أب ، وأسكن إلى كل أم ، وأشعر كما يشعر كل والد بحملٍ رخىّ رضىّ يثقل رويداً رويداً على البال المطمئن الوادع ! !

***

عدت إلى مصر فرأيتُنى أرسخَ فى الوطنية لأنى غدوت أصلاً من أصولها ، وأعزَّ فى القرابة لأنى صرتُ فصلا من فصولها ؛ ثم تجددت الأفراح ، وتسابقت التهانى ، وتنافست الهدايا ، وتعاقبت المآدب ، وغرقت الدار الكئيبة فى فيض من البهجة ، ورقصت الروضة الموحشة على ألحان البلبل ، ورفرفت السعادة الهشة على مهد الوليد

وكان العُش الآمن الغازُّ يعلن فى كل رابع عشر من شهر يناير ذكره للنعمة وشكره لله ؛ فيرفُّ للأصدقاء بالأنس ، ويخف للفقراء بالصدقة ، وتتفتح مصاريعه الضاحكة لتهنئات الصحاب ودعوات الأحبة ، ويخرج المرموق المعشوق صاحب العيد فى زينته وبهجته كالسوسنة الغضة ، يقابل مهنئيه ، ويتقبل هداياه ، ويستعرض لعَبه ، ويُشعُّ على الحفل البهيج من روحه الجذاب ، وحسنه الفاتن ، وذكائه الباكر ، إشعاعاً من وراء المعلوم لا يدركه إلا الأب الحنون وإلا الأعزب الشاعر

حنانيك يا رباه ! أكل ذلك أصبح اليوم ذكرى ؟ أغاية السعادة فى الأرض أن تنقلب وحشةً فى النفس وظلمة فى العين وحسرة فى الفؤاد ؟ لا يزال صوته الصافى الجميل يرن فى شعورى كله : فأنا أسمعه يقول ويده الصغيرة تجذب يدى : « ياللّه نشترى خروف عيدى يا بابا ... عاوز أتومبيل أحمر زىّ أتومبيل الملك يا بابا . » فأخرج معه كما يخرج الصديقان الأليفان لأمر مشترك ؛ فينتقى ثيابه بذوقه ، ويختار لعَبه بنفسه ، ويقترح علىّ أن نذهب إلى (حديقة الفردوس) ، فيمشى بين أفواف الزهر ، أو على زخرف الممشى ، فلا أدرى أجمال الروض زها فيه فنضر حتى فتن ، أم جماله هو فاض على الروض فزها حتى بهر ! ثم يتفرق بصره المبهور بين التماثيل والتصاوير والورد ، فيذهل عن طريقه فيخوض فى الماء فجأة ؛ فيخلع حذاءه وينزع جوربه ثم يدعهما للشمس ويقعد هو تحت المظلة أو فوق العشب يرسل على أبيه السعيد سيلا من الأسئلة لا ينقطع ، وفيضا من المسرة لا ينضب ؛ ثم يعود إلى بيته المزدان المرح فيستقبل فى المساء أعمامه أحمد أمين وزكى وخلاف والعبادى وعوض وزناتى ويونس وسائر محبيه ومحبى أبيه ، فينقلهم بإشراق نفسه وانطلاق طبعه من عالم الناس إلى عالم الملائكة !

***

ثم دار الفلك ، وتجرّم العام ، وعاد اليوم الرابع عشر من شهر يناير ! ولكنه وا حسرتاه يعود هذه المرة على بيت غير البيت ، ودنيا غير الدنيا ! ! فلا العش مرِحٌ بفرخه ، ولا الروض شادٍ ببلبله ، ولا الأتومبيل حالٍ براكبه !

يعود على ثياب مطوية ، ولُعَب مخفية ، وصور مستورة ، وعيون مقروحة ، وقلوب محطمة ، وآمالٌ مهيضة ! فلا بساط الأنس ممدود يا رفاق ، ولا حفلة العيد ساهرة يا أحبة !

أجل يعود اليوم الرابع عشر من شهر يناير ، ولكنه وا لهفتاه يعود على قبر جَنِىِّ الأزاهير بين حقول القرية البعيدة ؛ تسهر عليه الشجرة الصغيرة ، وترعاه من قرب عيون الأهل !

فيا من دعوت نفسك الرءوف الرحيم ! أين أجد رأفتك فيخف أساىَ ، وأصيب رحمتك فيندمل جُرحى ؟

ويا شاعر العروبة ، وحكيم الدهر ، وطريد الغِيَر ؛ متى أجد مصداق بيتك المعزّى الخالد :

ستألف فِقدانَ الذى قد فقدتَه
كإلفك وِجدانَ الذى أنت واجد

احمد حسن الزيات

الشمس

للأستاذ أحمد أمين

أى شىء أحب إلى النفس، من المتعة هذه الأيام بالشمس، والحديث عن الشمس ؟

فقد أقرسنا البرد حتى اصطكت منه أسناننا، وانكمش جلدنا، ويبست أطرافنا، وحتى وددنا — إذا رأينا النار — أن نحتضنها، وإذا رأينا الجمرة أن نلتهمها ؛ ولوددت فى هذه الأيام أن أكون فراناً، أو طباخاً، أو سائق قطار، حتى لا أفارق النار

* * *

كل شىء فى الطبيعة جميل، وأجمل ما فيها شمسها

وهى فى شتائنا أجمل منها فى صيفنا، ولها فى كلٍّ جمال

فلها — صيفاً — جمال القوة، وجمال القهر، وجمال السفور الدائم، نُعظِمُها ونجلها ؛ ونهرب منها ولكن نحبها. تقسو أحياناً، ولكنا نرى الخير فى قسوتها ؛ فهى كالمربى الحكيم، تقسو وترحم، وتشتد وتلين ؛ تلفحنا بنارها، ولكنها نار كنار الحب يكتوى بها قلب العاشق، ثم هو يرجو بقاءها، ويخشى زوالها ؛ ترسل علينا شواظاً من نار، فتسفع جلودنا، وتكوى جباهنا، حتى إذا غلا جوفنا، ووغر صدرنا، غابت عنا، وأرسلت رسولها اللطيف الوديع (القمر) نخفف من حدتنا، ولطف من سَورتنا، وأصلح ما أفسدت، وضمد ما جرحت ؛ فاذا خشيَتْ أن نطمئن إليه، أدركتها الغيرة منه فغيبته، وطلعت علينا ببهائها، وجمالها وجلالها. وهكذا دواليك

* * *

وهى — شتاء — تطلع علينا بوجه آخر، ترينا فيه جمال الحنو، وجمال الدعة، وجمال الرحمة والعطف، وجمال الغادة اللعوب، تشاغلك فتظهر وتختفى، وتسفر وتتحجب، وتخرج من قناعها ثم تتقنع

وتنتقم من رسولها الذى غارت منه صيفاً فتطلعه علينا فى جو بليرد لا نطيقه، حتى لا نفكر إلا فى دفئها ونعمتها، ولا نشتاق لشىء شوقنا لرؤيتها

فما أجملها قاسية وراحمة ! وما أجملها واصلة وهاجرة !

تتلون بشتى الألوان فتسحر العقول، وتبهر العيون ؛ فهى تارة بيضاء، وتارة صفراء، وتارة حمراء، ثم لا تستطيع أن تحكم هى فى أيها أبهى وأجمل ؛ فهى تزين ثيابها بأكثر مما تزينها ثيابها

فتحت النافذة قبل أن أكتب مقالتى فتدفقت فى حجرتى أشعتها الفضية اللامعة، وملأتها روحاً وحياة، وملأتنى دفئاً، وملأتنى معانى، وكانت حياتى فى حجرتى قبل زيارتها حياة مظلمة باردة جامدة لا معنى فيها ولا روح

* * *

خلعْتِ من جمالكِ على الزهر، فكان فتنة للناظرين ؛ فجماله من جمالك، ولونه قبس من ألوانك، وحياته مدد من حياتك ؛ فأبيضه وأحمره، وأصفره وأزرقه، ليس إلا نعمة من نعمك، وأثراً من فيضك

فالوردة الحمراء ليست إلا نقطة من دمك، والياسمين الأبيض ليس إلا لمحة من نورك، والنرجس الأصفر ليس إلا تبراً ذائباً من شعاعك

لقد أبيْتِ على الناس أن يدعوا النظر إلى جمالك، فألهيتهم بالنظر إلى بعض آثارك، ولوّنت الأزهار بألوانك، وأريتهم قدرة إبداعك. فشغل الجاهلون به عنك، وشغف به العارفون على أنه قبس منك، يطالعون جمالك فيه، ويقرأون معانيك فى معانيه

* * *

ثم شأنك فى البحر عجب أى عجب ! تضربينه بشعاعك، وتلفحينه بنارك، فيتحول ماؤه بخاراً، يصعد إليك ليستجير منك، ويمثل بين يديك لتمنحيه عفوك، وتنيليه عطفك، حتى إذا شعر برضاك، وأمن من غضبك، دمع دمعة السرور، ففارقته ملوحته، وعاد إليه صفاؤه وعذوبته، واكتسب منك الحياة فكان ماء جارياً، بعد أن كان ماء راكداً، فجرى جداول وأنهاراً، فأرسلته إلى خدمك فى الأرض من أزهار وأشجار يحيى ذابلها، ويستخرج دفينها، وينضج ثمارها

* * *

ثم تحركت فملأت الحياة حولك حركة ؛ فكم من نجوم لا يعلمها إلا الله تسير حولك وتحذو حذوك ؛ ثم تلعبين بالهواء من سخونة وبرودة فيتحرك ، ويتعلم منك اللعب فيلعب بالبحار والأنهار والأشجار وبكل شيء يمر به ؛ فاذا الدنيا كلها لعبة فى يده

ثم أنت أنت حرقت الأشجار والنبات ، وطمرتها تحت صفحة الأرض آلافا من السنين بعد آلاف ، حتى إذا تنبه الناس آخر الزمان فطنوا إلى أنه مستودع من مستودعاتك ، فاستغلوه فى كل ما نرى الآن من حركة ، فهو سر حركة المصانع والبواخر ، وسر حركة القطارات والآلات ، فلو قلنا إن كل حركة فى الأرض أنت مصدرها لم نبعد

***

تلعبين بالناس فتنيمينهم وتوقظينهم ؛ ترسلين أشعتك الجميلة على العالم فينتبه ، وتغيبين عنه فينام ؛ ثم تتداولين العالم فتنبهين قوما وتنيمين قوما ، ويراك قوم شروقا وقوم غروبا ، وقوم ليلاً وقوم نهاراً ، وقوم صيفاً وقوم شتاء ، وأنت أنت فى عليائك لا تملين الحركة ولا تشعرين بنوم أو يقظة ، ولا بليل أو نهار

***

بل بك يجرى الدم فى عروقنا ، فدمنا من غذائنا ، وغذاؤنا من حرارتك ، تسلطينها على الأرض فتخرجين منها « حباً وعنبا وقضباً وزيتوناً ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبّا » ؛ بل ما أفكارنا إلا منك ؛ أليست أفكارنا من دمائنا ، أو ليست دماؤنا منك ؟

بل لقد كنت حينا من الأحيان إله الناس ومعبودهم ، فكنت مصدر وحيهم ، ومصدر إلهامهم ، ووجهة عبادتهم . رأوك مصدر الحياة فعبدوك ، ورأوك مصدر النعم فحمدوك ، ورأوك يحيط بك كثير من الغموض على جلائك ووضوحك فألهوك ، ورأوك أكبر النجوم فربّبوك

ثم أتى الأنبياء فرأوك تأفلين فسلبوك ألوهيتك ، ورأوك تتغيرين فحولوا عبادتهم عنك

ولكن إن سلبوك ألوهيتك فلم يسلبوك عظمتك وجمالك وجلالك وكفاك ذلك فخراً

***

لست أدرى أأصاب العرب إذ أنثوها أم أصاب الانجليز إذ ذكروها ؛ لعل الانجليز رأوا القمر وادعاً جميلاً هادئاً رقيقاً فأنثوه ، ورأوا الشمس قوية قاهرة قاسية فذكروها ؛ ولكن لعل واضعى اللغة من الانجليز لو عاشوا فى عصرنا ، ورأوا ما نرى من قوة المرأة وضعف الرجل ، وجبروت المرأة واستكانة الرجل ، لرجعوا إلى رأى العرب ، وآمنوا ببعد نظرهم ، وقلبوا المذكر مؤنثاً والمؤنث مذكراً

ولعل العرب أيضاً رأوا الشمس أمّ الأرض وأمّ القمر وأم الزرع فأنثوها ، إذ لا تلد إلا امرأة ؛ ورأوا القمر طفلاً يدور حول أمه فذكروه ، واحتاط العرب أن يدرك الشمس شيء مما يلحق الأنوثة فقال شاعرهم : « وما التأنيث لاسم الشمس عيب »

أما الشمس نفسها فلم تعبأ بتأنيث ولا تذكير ، كما لم تعبأ عن أنها وعن ذكرها

فهى فى سمائها تؤدى رسالتها ، وتسير سيرتها ، وتبهرنا بجمالها ، وتوحى إلينا بأسرارها

فما أعظمك ! وأعظم منك من خلقك !

٤ يناير سنة ١٩٣٧ — أحمد أمين

٨ - القلب المسكين

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

وأما هو فحدّثني بهذا الحديث العجيب من لطائف إلهامه وفنّه قال : انصرفت إلى داري وقد عزّ عليّ أن يكون هذا منها وأن يكون هذا مني ، وهي إن غابت أو حضرت فأنها لي كالشمس للدنيا ، لا تظلم الدنيا في ناحيةٍ إلا من أنها تضيء في ناحية ، فظلمتها من عمل نورها . وكانت ليالي فارغة من النوم فبتُّ أتململُ ، وجعل القلب يدقّ في جنبيّ كأنه آلة في ساعة لا قلب إنسان ؛ وكان في الدنيا من حولي صمت كصمت الذي سكت بعد خطبة طويلة ، وفيّ أنا صمت آخر كصمت الذي سكت بعد سؤال لا جواب عليه ؛ وكان الهواء راكداً كالسكران الذي انطرح من ثقلة السكر بعد أن هذى طويلاً وعربد ؛ والوجودُ كلّه يبدو كالمختنق لأن معنى الاختناق في قلبي وأفكاري . ونظرت نظرةً في النجوم فاذا هي تتغوّرُ نجماً بعد نجم كأن معنى الرحيل انتشر في الأرض والسماء إذ رحلت الحبيبة ، وكأن كل وجهٍ مضيءٍ يقول لي كلمة : لا تنتظر

فلما عسعسَ الليلُ رميت بنفسي فنمت والعقل يقظان ، وصنعت الأحلامُ ما تصنع ، فرأيتها هي في تلك الشفوف التي ظهرت فيها عروساً ؛ وما أعجب كبرياءَ المرأة المحبوبة ! إنها لتبدو لعيني محبها كالعارية وراء ستر رقيق يشف عنها كالضوء ، ثم تدلّ بنفسها أن ترفعَ هذا الستر ؛ فأن لم يتجرأ هو لم تتجرأ هي ؛ وكأنها تقول له : قد رفعتُه بطريقتي فارفعه أنت بطريقتك . . .

وكانت مصوّرة في الحلم تصويراً آخر فلا ينسكب من جسمها معنى الحسن الذي أتأمله وأعقله ، ولكن معنى السكر الذي يترك المرء بلا عقل ؛ ولم تكن غلائلها عليها كالثياب على المرأة ، ولكنها ظهرت لي كاللون على الوردة الزاهية ؛ تُظهر فتنةً وتُتم فتنة

أيتها الأحلام ماذا تُبدعين إلا مخلوقات الدم الانساني ، ماذا تبدعين ؟

قلت : ياصديقي دع الآن هذه الفلسفة وخذ في قصّ ما رأيت . ثم ماذا بعد الوردة ولون الوردة ؟

قال : إنه القلبُ المسكينُ دائماً ، إنه القلب المسكين . لقد ضحكت لي وقالت : هأنذى قد جئت ، وأقبلتْ تراءيني بوجهها ، وتتغزل بعينيها ، وتتنهد بصدرها ، وألقت يدها في يدي فأحسست اليدين تتعانقان ولا تتصافحان ؛ ثم تركناهما نائمتين إحداهما على الأخرى ، وسكتنا هُنيهةً وقد خيِّل الينا أننا إذا تكلمنا استيقظت يدانا

أما صافحتك امرأة تحبها وتحبك ؟ أما أحسست بيدها قد نامت في يدك ولو لحظة ؟ أما رأيت بعينيك نعاس يدها وهو ينتقل إلى عينيها فاذا هما فاترتان ذابلتان ، وتحت أجفانهما حلمٌ قصير ؟

قلت : يا صديقي دع الفلسفة ؛ ثم كان ماذا بعد أن نامت يدٌ على يد ؟

قال : ثم كانت سخرية من الشيطان أقبح سخرية قط

قلت : حسبي لكأنك شرحت لي ما بقي . . .

فضحك طويلاً وقال : إن الشيطان يسخر الآن منك أيضاً ، وكأني به يقول لك : وكان ما كان مما لست أذكره . . . أفتدري ما الذي كان وما بقية الخبر ؟

لقد كنتُ مولعاً بامتحان قوتي في الضغط بيدي على أعواد منصوبةٍ من الحديد ، أو على أيدي الرجال الأقوياء إذا سلمتُ عليهم ؛ فلما صافحتني لبثت مدة من الزمن ثم شددتُ على يدها قليلاً قليلاً ، فتنبهتْ فيّ هذه العادة ، فمسخت الحلمَ وانصرف وهمي إلى أقبح صورةٍ وأشنعها وأبعدها مما أنا فيه من الحب ولذات الحب ؛ فاذا بإزائي وجه ؛ وجهُ من ؟ وجهُ مصارع ألماني كنتُ أعرفه من عشرين سنة وأضغط على يده . . .

* * *

قلت : إنما هذه كبرياؤك أو عفتك تنبهتْ في تلك الشدّة من يدك ، ولا يزال أمرك عجيباً ؛ فهل معك أنت ملائكة ومع الناس شياطين ؟

قال : والذي هو أعجب أني رأيت في أضعاف أحلامي كأن قلبي المسكين يخاصمني وأخاصمه ؛ وقد خرج من أحناء الضلوع كأنه مخلوق من الظل يُرى ولا يُرى إذ لا شكل له ؛ وسبّني وسببتُه ، وقلت له وقال لي ، وتغالظنا كأننا عدوان ؛ فهو

يرى أنى أنا أمنعه لذته ، وأرى أنه هو يمنعنى ، وأنه أشقى بى على ما أشقى ؛ وقلت له فيما قلت : لا قرارَ على جنايتك فاذهبْ عنى ولا تتسمَّ باسمي فانه لا فُلانَ لك[1] بعد اليوم ؛ ولولا أنك مخذول فى الحب لعلمتَ أن لمسةَ يد الرجل ليد المرأة الجميلة نوعٌ مخفَّف من التقبيل ، فاذا هى تركته يرتفع فى الدم انتهى يوماً إلى تقبيل فمه لفمها ؛ ولولا أنك مخذول فى الحب لعلمت أن هذا الضم بين اليدين نوع مخفف من العناق ، فاذا هى تركته يشتد فى الدم انتهى يوما إلى ضم الصدر للصدر ؛ ولكنك مخذول فى الحب ، ولكنك مخذول .

وقال لى فيما قال : وأنت أيها الخائب ؟ أما علمتَ أن أناملها الرَّخْصةَ هى أناملُها ، لا أعوادُك من الحديد ؟ فكيف شددت عليها ويحك تلك الشِّدة التى أخرجت لك وجهَ المصارع ؟ ولكنك خائب فى الحب ، ولكنك خائب .

قلت : فهذه قضيةٌ بينى وبينك أيها القلبُ العدوّ ؛ لقد تركتنى من الهموم كالشجرة المُنْخَرِبةِ قد بليَتْ وصارت فيها التخاريب فلا حياتُها بالحياة ولا موتُها بالموت ، وكم علّقتنى بفاتنةٍ بعد فاتنة لا عنها إقصارٌ ينتهى ولا فيها مطمعٌ يبتدىء ؛ ما أنت فىَّ إلا وحشٌ أكبرُ لذته لطْعُ الدم .

* * *

واستدار الحلم فلم ألبث أن رأيتنى فى محكمة الجنايات ، وكأنى شكوت قلبى إليها فهو جالس فى القفص الحديدىّ بين المجرمين ينتظر ما ينتظرون من الفصل فى أمرهم ؛ وقد ارتفع المستشارون الثلاثة إلى منصة الحكم وجلس النائب العامُّ فى مجلسه يتولى إقامةَ الدعوى وبين يديه أوراقه ينظر فيها ، ورأيت منها غلافا كُتب على ظاهره : قضية القلب المسكين .

وتكلم رئيس المحكمة أولَ من تكلم فقال : ليس فى قضية القلب محامٍ ، فابْغُوه من يدافع عنه ؛ ثم التفت إليه وقال : من عسى تختار للدفاع عنك ؟

قال القلب : أوَهنا موضع للاختيار يا حضرة الرئيس ؟ إنه ليس تحت هذه — وأومأ إلى السماء — ولا فوق هذه — وأومأ إلى الأرض — إلا . .

فبَدَر النائب العام وقال : إلا الحبيبة . أكذلك ؟ غير أنها أستاذة فى الرقص لا فى القانون

— القلب : ولكننى لا أختار غيرها محكوما لى أو محكوماً على . أنا أريد أن أنظر فيها وانظروا أنتم فى القضية . . . .

— الرئيس : فليكن ؛ فهذه جريمة عواطف إئذَنْ لها أيها الآذن

فنادى المحْضِر[1] : الأستاذة . الأستاذة

وجاءت مُبادِرة ، ودخلت تمشى مشيتَها وقد افترَّ ثغرها عن النور الذى يسطع فى النفس ؛ وأومَضَتْ بوجهها يميناً وشمالاً فصرفَ الناسُ جميعاً أبصارهم إليها وقد نظروا إلى فتنة من الفتن ؛ وثارت فى كل قلب نزعة ، وغلبت الحقيقةُ البشرية فانتقضت طباع الموجودين فى قاعة الجلسة ، وأبطل قانون جمالها قانونَ المحكمة ، فوقعت الضجة وعلت الأصواتُ واختلطت ؛ وتردَّدت بين جدران المكان صَدى فى صَدًى كأن الجدران تتكلم مع المتكلمين

أصواتأصوات : سبحان الله ! سبحان الله ! تبارك الله ، تبارك الله ، آه آه ؛ آه آه ؛ وسمع صوت يقول : اتَّهمونى أنا أيضاً ... فتنفرت الكلمات وأنا وأنا وأنا . واختفت المحكمة وانبعث المسرح بدخول فاتنته الراقصة ؛ وكان المستشارون والنائب العام فى أعين الناس كأنهم صور معلقة على الحائط لا يخشاها أحدٌ أن تنظر إلى ما يصنع

فصاح الرئيس : هنا المحكمة ! هنا المحكمة ! سبحان الله ... المحكمة المحكمة

— النائب العام : هذا بدْءٌ لا ترضاه النيابة ولا تقبل أن تنسحب عليه . نعم إن هذا الوجه الجميل أبرعُ محام فى هذه القضية ، ونعم إن جسمها . . . آه ماذا ؟ إنكم تأتون بالشهوة الغالبة القاهرة لتدافع عن المشتهِى ... عن المتّهم . هذا وضع كوضع العذر إلى جانب الذنب . وكأنكم يا حضرات المستشارين . .

فبَدَرت المحامية تقول فى نغمة دلال وفتور : وكأنكم يا حضرات المستشارين قد نسيتم أن النائب العام له قلب أيضاً ...

واشتدَّ ذلك على النائب وتبين الغضب فى وجهه ، فقال : يا حضرة الرئيس

(١) ذكر اسمه كما تقول مثلا لا محمد لك

(١) هو الموظف الذى يكون فى الجلسة للنداء على الخصوم

— الرئيس مبتسماً : واحدة بواحدة ، وأرجو ألا تكون لها ثانية ، ومعنى هذا كما هو ظاهر ألا تكون لها ثالثة . . . . (ضحك)

* * *

قال صاحب القلب المسكين : وكنت بلا قلب ... فلم التفت للجمال ، بل راعني ذكاءُ المحامية ونفاذُها وحسن اهتدائها إلى الحجة في أول ضرباتها ، وتعجبت من ذلك أشد التعجب ، وأيقنت أن النائب العام سيقع في لسانها لا كما يقع مثله في لسان المحامى القدير ، ولكن كما يقع زوجٌ في لسان زوجة معشوقة متدللة تجادله بحجج كثيرة بمضها الكلام ... وقلت في نفسي : يا رحمة الله لا تجملي من النساء الجميلات الفاتنات محاميات في هذه المحاكم ، فلو ألبسوهن لِحًى مستعارة لكان الصوت الرخيم وحده من تلك الأفواه الجميلة العذبة نداء قانونياً للقبلات . . .

ونهضت المحامية العجيبة فسلطت عينيها الساحرتين على النائب ، ثم قالت تخاطب المحكمة : قبل النظر في هذه القضية قضية الحب والجمال ، قضية قلبي المسكين ... أريد أن أتعرف الرأى القانوني في اعتبار الجريمة . أهي شخصية ، فتُقصر على صاحبها ؛ أو خاصة فتضر غير جانيها ؛ أو عامة فيتناولها العموم المحدود لمن تجمعهم جامعة الحب ؛ أوهي أعم ، فيتناولها العموم المطلق للهيئة الاجتماعية ؛ ما هي جريمة قلبي ..؟

— الرئيس : ما رأى النيابة ؟

النائب ضاحكا : (غزالتها رايقة) كما يقول الراقصات والممثلات . . . . أرى أنها جريمة آتية من ضرب الخاص في العام .. (ضحك)

المحامية : جواب كجواب القائل : حب أبي بكر . كان ذلك الرجل يحب زوجته الجميلة ويخافها ، وكانت تقسو عليه قسوة عظيمة وتُغلظ له الكلام وهو يفرَق منها ولا يخالفها . فرآها يوما وقد طابت نفسها فأراد أن ينتهز الفرصة ويشكو قسوتها ؛ فقال : يافلانةقد والله أحرق قلبي .. ولم تدعه يُتم الكلمة ، فحددت نظرها اليه وقطبت وجهها وقال : أحرق قلبك ماذا ؟ فخاف ولم يقدر أن يقول لها سوء أخلاقك . فقال : حب أبي بكر الصديق رضى الله عنه .. (ضحك) ورنت ضحكة المحامية فاضطربت لها القلوب ، ووقعت في كل دم ، وفي دم النائب أيضاً ؛ فانخزل ولم يزد على أن يقول : أحتجُّ من كل قلبي . .

الرئيس : لندخل في الموضوع ، ولتكن المرافعة مطلقة فان الحدود في جرائم القلب تُسْدل وتُرفع كهذه الستائر في مسرح التمثيل . وعشرون ستارة قد تكون كلها لرواية واحدة

* * *

— النائب العام : يا حضرات المستشارين ، لا يطول اتهامى فان هذا القلب هو نفسه تهمة متكلمة

المحامية : ولكنه قلب

النائب : وأنا يا سيدتى لم أحرف الكلمة ولم أقل إنه كاب . (ضحك) وتضرج وجه المحامية وخجلت[1]

— الرئيس : الموضوع الموضوع

النائب : ياحضرات المستشارين . إن ألم هذه الجريمة إما أن يكون في شخص الجاني أو ماله ، أو صفته كأن يكون زوجاً مثلاً ، أو صيته الأدبي . فأما الشخص فهذا ظاهر ، وأما المال فنعم إن القلب المسكين قرر لنفسه ولصاحبه ألا يبتاع أبداً تذكرة دخول إلى جهنم ... (ضحك)

— المحامية : أستسمح النائب عذراً إذا أنا . . . إذا أنا فهمت من هذا التعبير أن حضرته يعرف على الأقل أين تباع هذه « التذاكر » ... (ضحك) وتفرج وجه النائب العام وخجل .

— الرئيس : كنت رجوت ألا تكون للأولى ثانية ، وقلت : إن معنى هذا كما هو ظاهر ألا يكون لها ثالثة ؛ فهل أنا محتاج إلى القول بأن المعنى المنطقيّ ألا يكون للثالثة رابعة ... ؟

— النائب : يا حضرات المستشارين . وأما الصفة ، فهذا القلب المسكين قلب رجل متزوج ؛ ولا تغرنَّكم صوفية هذا القلب ، ولا يخدعنكم تألهه وزعمُه السموّ . إنه على كل حال يعشق راقصة ، وهذا اعتداء في ضمنه اعتداء ؛ على الزواج وعلى الشرف . وهبوه متصوفاً متألها ولم يتصل بالراقصة ، فهو على كل حال قد أخذها واتخذها ولكن بأسلوبه الخاص . . . وبهذا اقترف الجريمة . آه . ان هذه القضية ناقصة ؛ وذلك نقص فيها

(١) إذا كان كلباً فهو يتبع كلبة ... وهذه هي غمزة النائب للمحامية ، ولا ينس القراء أن المحكمة في الرؤيا ؛ وفي الرؤيا علمنا أن هذا النائب كأكثر شبان العصر في هذه المدنية الفاسدة ، لا يتزوجون لأن المدنية جعلتهم بين الفتيان « أنصاف متزوجين » على وزن « أنصاف عذارى » بين الفتيات ... وفي الرؤيا علمنا أنه يخادن راقصة ويقال ممثلة — بينها وبين صاحبة القلب المسكين منافسة ...

أخشى أن يكون نقصا فى الحكم أيضاً ، فأتموه أنتم . يا حضرات المستشارين إن النقص فيها أنها لا شهود فيها ؛ ولـكن هذا عمل إلـهى لا يظهر إلا يومَ تشهدُ عليهم ألسنتُهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون

— المحامية : هـذا تعبير أكبر من قدرة قائله ومن منزلته ووظيفته ، هذا تعبير جسور . يا حضرة النائب ؛ من الذى لا يحمل شهوداً فى لسانه ويديه ورجليه ؛ بل ألف شاهد على ليلة واحدة . . . يجب أن يكون مفهوماً بيننا يا حضرة النائب أن النون والباء فى لفظة (نائب) غير النون والباء فى لفظة (نبى)

— النائب : يا حضرات المستشارين . لا أرى مما يُحرجنى فى الاتهام أن أصرح لـكم أن مما حيّرنى فى هذه الجريمة أنْ ليس فيها من أوصاف الجرائم إلا اثم الـكرامة . فلا قذف ولا سب ولا هتك عرض ولا فجور ، ولا أصغر من ذلك ، ولا كأس خمر للراقصة . . .

— المحامية : لا أرى أمام حضرة النائب كأس ماء ، وسيجف حلقُه فى هذه القضية فلعل المحكمة تأمر لى بكأس ... (ضحك)

— النائب : يا حضرات المستشارين . يمشق راقصة ؛ اسم فاعل من رقص يرقص ؛ امرأة لا تلبس ثياباً بل عُرياً فى شكل ثياب . . . امرأة لا كالنساء ؛ كذبها هو صدق من شفتيها . لماذا ؟ لأنهما حمراوان رقيقتان عذبتان محبوبتان مطلوبتان . . .

المحامية : تضحك . . .

— النائب بعد أن تتمتع : امرأة لا كالنساء ، جعلتها الحرفة امرأة فى العمل ، ورجلاً فى الـكسب . . .

— المحامية : ولـكنك لا تدرى تحت أى رحل سقطت[1] السكينة . وقد يكون فى الرذائل رذائل كبعض أصحاب الألقاب ؛ ذات عظمة . . .

— النائب : يحب راقصة ، أى يضعها فى عقـله الباطن ويشتهيها . نعم يشتهيها . فمن عقله الباطن ، وبتعبير اللغة ، من واعيته — تخرج الجريمة أو على الأقل فـكرة الجريمة

والصيت الأدبى يا حضرات المستشارين ؟ هل من كرامة لمن يعشق راقصة ؟ لا بل هل من كرامة فى الحب ؟ ألم يقولوا إن كرامة الرجل العاشق تـكون تحت قدمى المرأة المعشوقة

(١) هذه الكلمة لقكتور هيجو

كالممسحة الخشنة تمسح فيها نعليها

الحب ؟ ما هو الحب ؟ إنه ليس فـكرة ، بل هو شيطان يتلبس لجسم العاشق ليعمل أعماله بأداة حية ، وهذا التركيب الحيوانى للانسان هو الذى يهيء من الحب مداخل ومخارج للشياطين فى جسمه . وهل رضى صاحب القلب المسكين بجناية قلبه عليه ، وعظيم ما انتهك من أخـلاقه السامية ، هل رضى بمشقه راقصة ؟ إنه لم يرض الرضى الصحيح ، او رضى بقدر ما . فملى كليهما يقوم فى نفسه مانع والمانع من الرضى هو الموجب للعقوبة

— المحامية : ولـكن قدراً من الرضى ينزل بالجناية فيردها الى جنحة كما فى القانون الانجليزى . وقد قرر الشرّاح أنه مادام الرضى غير مستلبٍ بكله ، فالجريمة غير واقعة بكلها

— النائب : جنحة كل قلب هى جناية من هـذا القلب بخصوصه ، على طريقة : «حسـنات الأبرار سيئات المقربين» . والعبرة هنا بالواقع لا بالصـفة القانونية . وقد قرر الشراح أن الواقع قد يكون أحياناً سبباً فى تشديد العقوبة ، فلا بد من تشديد العقوبة فى هـذه القضية . لا أطلب الحكم بالمادة ٢٣٠ عقوبات بل بالمواد من ٢٣٠ إلى ٢٤١ ضربة واحدة ...

— المحامية : قد نسيت أن هـذا قلب وعقوبته عقوبة لصاحبه البرىء

— النائب : إذن أطلب عقابه بحرمانه الجمال ؛ وهذا أشق عليه من العقاب بائنتى عشرة مادة وبعشرين وثلاثين

الرئيس : وما هى الطريقة لتنفيذ الحكم بهذا الحرمان ؟

النائب : تأمر المحكمة بالمراقص كلها فتغلق ، وبالمسارح كلها فتقفل ، وبالسيما فتبطل إلا ما لا جمال فيه منها ولا غزل ولا حب ، ويحرم السفور على النساء إلا العجائز والدميمات ، ويمنع نشر صور الجمال فى الصحف والـكتب ، و . . .

المحامية : قل فى كلمة واحدة : يجب إصلاح العالم كله لأصلاح القلب الانسانى

* * *

وجلس النائب ، فالتفت الرئيس إلى المحامية وقال لها : وأما هو ؟

(لها بقية — طنطا) مصطفى صادق الرافعى

الريف

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

أراني كلما فسد الجو ، وكثر تقلبه ، وعز الاطمئنان اليه ، أميل إلى الخروج إلى الصحراء أو الريف ، ولا أطيق القعود فى البيت ؛ ولست أعرف لهذا المزاج — الشاذ فيما أعتقد — تعليلاً يسكن اليه العقل وتستريح اليه النفس . فأما أنه مزاج شاذ فأعرفه من صياح أهلي حين يرونني أرتدي ثيابي والمطر منهمر والريح تعصف ، وأهم بالخروج ؛ ولست أراهم يملون أن يقولوا لي : « يا شيخ ، ما هذا الجنون ؟ تخرج فى هذا المطر !! أما إن هذه لحكاية ! اقعد ... اقعد ... نضرم لك الفحم ، ونشوى « أبا فروة » أو نمص القصب ونحمد الله على وقاية الجدران »

فأهز رأسي وأقول : « ما أحلى هذا ! ولكني لا أطيق المكث هنا على حى له بينكم ، ولست أحب أن أفارقكم لحظة ، وإنه ليعز على ألا تأخذكم عيني فى حيثما أكون ، ولكن نفسي أمارة بالسوء ، أو بالحماقة ، أو بما شئتم غير ذلك . فاذا كنتم تحبونني فتعالوا معي ... فان الفضاء رحيب ، والصحراء واسعة ، وهاتوا القصب معكم ، وأبا فروة أيضاً ... نضع هذا كله فى السيارة ونمضى بها ... قوموا »

ولكنهم لا يفعلون ، فأمضى وحدى وأعود بزكام أو برد ، ولكني أعود مستريح النفس هادئ الأعصاب !

وقد كنت أقول لصديق لى منذ بضعة أيام ، وهو من أصحاب العقول المثقفة ، والنظر البعيد ، والغوص الشديد : « يا أخى ، لماذا لا يحب المصريون الريف ؟ »

قال : « وكيف لا يحبونه وهم لا يبرحونه ؟ »

قلت : « إنما أعنى أهل المدن — القاهرة مثلاً — قلما يخطر لهم أن يقضوا أيام البطالة والفراغ من العمل فى رحلة إلى الريف »

قال : « وأين تريد أن يذهبوا ، وليس فى الريف لغير أهله مذهب أو مقام ؟ »

قلت : « هذا هو سؤالى ... لو كان الناس عندنا يحبون الريف ويطيب لهم أن يقضوا فيه كل ما يسعهم أن يختلسوه من الوقت ، لتغير حال الريف ، وتكيف على مقتضى هذه الرغبة ، وصار لغير أهله فيه مذهب ومقام »

قال : « ربما » وانقطع كلامنا فى ذلك

ولكني لم أكف عن التفكير فيه ، وقد أدرت عيني فى شعوب البحر الأبيض فاذا أكثرها كأهل مصر ، ليس لهم « غرام » أو « عشق » للريف أو ما يسمى « الطبيعة » ، فالروم والطليان والفرنسيون والأسبان ، كلهم على شاكلتنا : الحضرى منهم يبقى فى المدينة ولا ينشد الريف أو يحن اليه ؛ والريفى فى قريته ، يندر أن تنزع نفسه إلى تركها أو التطواف بعيداً عنها . ولا نكران أن هجرة أبناء هذه البلاد إلى الأقطار الأخرى غير قليلة ، وفى مصر وحدها منهم عشرات الألوف ، أو مئاتها ، ولكن الهجرة تجيء عن اضطرار لا عن رغبة ، والباعث عليها الحاجة ، فلا دخل لهذا فيما أقول عنهم من ضعف ولوعهم « بالطبيعة »

وأكثر الأجانب هنا يتخذون مساكنهم فى قلب المدينة ولا يبعدون بيوتهم عن أماكن عملهم بعداً يكلفهم مشقة أو يجشمهم عناء ونفقة ، ما خلا الانجليز ، فان الرجل منهم يكون عمله فى شبرا ، فيتخذ بيته فى أطراف مصر الجديدة أو فى الزمالك على النيل ، أو فى الجيزة على طريق الهرم ، ولا يبالى ما يضيع من الوقت فى الذهاب والاياب ، ولا يحفل ما يكلفه هذا البعد من النفقة . وقلما يقضى يوم بطالة فى بيته إلا إذا كان مريضاً . وليس بالنادر أن ترى الواحد منهم يحمل فى سيارته خيمة وطعاماً وشراباً يكفيان أياماً ، وفراشاً أيضاً للنوم والجلوس ، وأدوات للعب ، ويذهب بذلك كله إلى السويس مثلاً ؛ ولو شاء لأعفى نفسه من هذا العناء كله ، فان يعدم فندقاً يبيت فيه ، ولكنه يضرب خيمته على ساحل البحر أو فى الصحراء ويقضى أياما ناعما بالعزلة والوحدة وبما حوله من وجوه الأرض أو الماء ، ويروح يمشى بضعة فراسخ كل يوم ... وقد يكون وحده ، فلا يشعر بوحدة ولا تخطئه سكينة النفس ، وقد يكون معه غيره ، فلا تراه — فيما يبدو لك — شاعرا بأنس يفتقده فى وحدته ، فكأن أنسه كله بالمحل لا بالرفقة .. ومن المتع التى يحرص عليها أن يكون له بيت أو كوخ — سيان عنده — فى مكان ريفى بعيد يذهب اليه كلما وسعه أن يخلو من مشاغل العمل . فهو فى هذا نسيج وحده . ولا يمنعه المطر أو الأعصار أن يخرج فى ثياب السهرة ليتمشى ويرقص ويحيى الليل على أسعد حال ، ولا

يقعده البرد في بيته كما يقعدنا — حتى في بلاده التي لا أعرف أسخف منها جواً ، ولا أبعد عن الاعتدال ، فهو هناك كعهدنا به هنا

وأهل الشام على خلاف أهل مصر ، فانهم كثيرو الخروج الى الرياض والبساتين ؛ حتى « قهواتهم » أو « مقاهيهم » . كما يريدوننا أن نسميها — قلما تكون إلا في بستان أو كما يقول ابن الرومي :

« في » ميادين يخترقن بساتيـ ـن تمس الرؤوس بالأهداب[1]

ولا أعرف كما قلت تعليلاً لهذا الاختلاف في الطباع ؛ وأحسب أن اعتدال جو بلادنا على العموم يحمل على الرضى بالموجود ولا يغرى بغشيان غيره . ولماذا يشتاق ساكن المدينة الى الريف وليس في المدينة ما يزهده فيها ويدفعه الى الخروج منها والتماس ما هو أخف محملاً ، وأكفل براحة النفس وسكينة الأعصاب ؟ ومما يساعد على القناعة ويبعث على القعود أن التنوع مفقود ؛ فالذي يترك القاهرة لا يتوقع أن يستفيد متعة يخطئها فيها ؛ والمناظر في الريف واحدة أو هي متشابهة ، فلا جبال هناك ولا غابات ولا أحراج ، ولا غير ذلك مما يحرك الخيال فيحرك النفس ، ولا اختلاف هناك يجعل للنقلة لذة ترجى . والريف من مصر قريب ، فهو معروف غير مجهول . والصحراء حولها من بعض جهاتها فلا موجب للتخيل ، ولكن الانجليزي شأنه غير شأننا ، فأن جو بلاده دائم التقلب ، وهو مع تقلبه السريع سخيف غير مأمون ؛ وقد يكون هذا مما يدفع الانجليزي الى اشتياق الريف ويغريه بتصور سحره ويبعثه على التماسه ونشدانه حتى ولو تكررت خيبة أمله فيه

وأمم البحر الأبيض شبيهة بنا من حيث المزاج ، وجوها أقرب الى الاعتدال من جو الشمال ؛ ومن هنا فيما أظن مشاكلتها لنا في هذه الطبيعة ، ولست أرى وجوه الاختلاف تؤثر في هذا

ولا نكران أننا تغيرنا . فكثير بيننا الذين يطلبون الريف أو الصحراء ويؤثرونهما على المدن ، ولكننا نفعل ذلك على سبيل التقليد ومن قبيل المحاكاة وبفضل التثقيف الحديث والاتصال الوثيق بالغرب لا بدافع من الفطرة وحافز من الطبيعة . ومثلنا في هذا أمم البحر الأبيض فقد ذهبت تقلد أمم الشمال كالانجليز والاسكندناويين والألمان ، وراحت تتكلف حب الطبيعة حتى لصارت تبدو كأن هذا فيها طباع ، وما هو بذاك

ابراهيم عبد القادر المازني

(١) البيت في الأصل « من ميادين الخ »

الخليفة العزيز بالله

وزوجه النصرانية وأصهاره البطاركة

للأستاذ محمد عبد الله عنان

ليس غريباً أن تقرأ في التاريخ الاسلامي أن خليفة من الخلفاء قد ولد من أم نصرانية أو أنه قد تزوج من نصرانية وله بين الأمراء النصارى أصهار ولأولاده منهم أقارب ؛ ولكن ربما يبدو غريباً أن يقترن خليفة مسلم بنصرانية تنتمي إلى أسرة من الأحبار ، وأن يكون له بين أحبار الكنيسة أصهار ، ولولده منهم أقارب وخؤولة : تلك هي حالة العزيز بالله ثاني الخلفاء الفاطميين بمصر ، ولد المعز لدين الله ، ووالد الحاكم بأمر الله

كانت الخلافة الفاطمية منذ قيامها بمصر تتشح بصبغتها المذهبية العميقة ؛ بيد أنها رأت أن تتبع نحو الذميين من النصارى واليهود سياسة التسامح الحر ؛ وظهر أثر هذا التسامح جلياً في علائق الذميين بالدولة ، وفي ارتفاعهم إلى أرقى مناصبها ؛ بل نرى في خلافة المعز لدين الله وولده العزيز ثبتاً حافلاً من الوزراء والكتاب النصارى واليهود يحتلون أرفع المناصب في البلاط وفي الحكومة ؛ وكان أول وزراء الدولة الفاطمية وأعظمهم يهودياً اعتنق الاسلام ، وهو الوزير يعقوب بن كلس ؛ وفي عصر العزيز كان مدبر الدولة وكبير الوزراء نصراني هو عيسى بن نسطورس ؛ وكان متولي أعمال الشام يهودياً يدعى منشا ؛ وفي عهد المعز والعزيز أنشئت كنائس وأديار كثيرة ؛ وبلغ نفوذ النصارى واليهود ذروته في عصر العزيز حيث استولى الوزراء والكتاب الذميون على معظم أعمال الدولة ، واستأثروا بمعظم السلطات والنفوذ ، وقد كان لهذه السياسة المتطرفة في التسامح والعطف أثر سيء في المجتمع المصري ؛ وتنقل الرواية إلينا في ذلك قصة خلاصتها أن العزيز بالله رأى ذات يوم في طريق الركب الخلافي امرأة تمد بيدها رقعة كأنها ظلامة . فتناولها ، فاذا بالمرأة هيكل من الجريد قد ألبس إزارا ، وإذا في الرقعة ما يأتي : « بالذي أعز اليهود بمنشا ، والنصارى بعيسى

ابن نسطورس ، وأذل المسلمين بك إلا ما كشفت ظلامتي ... » فأدرك العزيز ما انتهت إليه نفسية الشعب من تحكم الأقلية الذمية فى مناصب الدولة ومرافق الأمة ؛ وسواء صحت هذه الرواية أم كانت فقط أسطورة ذات مغزى ، فان العزيز لم يلبث أن أدرك خطر هذه السياسة على سلطان الخلافة وهيبة إمامتها الذهبية ، فانقلب إلى مطاردة الذميين ، وقبض على الوزراء والكتاب من النصارى واليهود ؛ ولكنه عاد فأفرج عنهم بعد أن اتخذ بعض الضمانات التى تكفل الحد من طغيانهم وإسرافهم فى سياسة الاصطفاء

وتجمع الروايات المعاصرة على أن جنوح العزيز إلى هذا الاسراف فى التسامح نحو الذميين يرجع من وجوه كثيرة إلى نفوذ زوجه أو سريته النصرانية ، وابنته منها الأميرة ست الملك ؛ وكانت فتاة عاقلة حازمة يحبها والدها العزيز ويستمع إلى نصحها فى كثير من الأمور ؛ وأخيراً إلى نفوذ صهريه أخوى زوجه ، وهما حبران كبيران تبوآ فى عصر العزيز أرفع المناصب الكنسية

* * *

وهذه القصة : أعنى قصة زواج العزيز من سيدة نصرانية ، قصة يمازجها شيء من الغموض والاضطراب ، وتنفرد بتفاصيلها الرواية النصرانية ، ولا تكاد تشير اليها الرواية الاسلامية ؛ وتقول لنا الرواية إن هذه السيدة زوج العزيز أو سريته ، كانت جارية رومية نصرانية من طائفة الملكية ، وكان لها أيام العزيز نفوذ كبير فى الدولة ؛ وكان لها أخوان هما ارسانيوس أو (أرسانى) وأريسطيس ، رفعهما العزيز بتدخله ونفوذه إلى ذرى المناصب الكنسية ، فعين أريسطيس بطريركا للملكية ببيت المقدس (سنة ٣٧٥ هـ) وعين أرسانيوس فى نفس العام مطراناً للقاهرة ، ثم عين بعد ذلك بطريركا للملكية بالاسكندرية (سنة ٣٩٠ هـ)[١] وكان لهذين الحبرين بلاريب نفوذهما فى بلاط يرتبط معهما بأواصر المصاهرة ، وفيه أختهما « زوج الخليفة » وابنته منها الأميرة العاقلة المحبوبة ست الملك ؛ وكانت عند وفاة والدها العزيز فى نحو السادسة والعشرين من عمرها ؛ وقد حملت رسالته فى التسامح بعد ذلك فى فرص كثيرة ، ولا سيما بعد مصرع أخيها الحاكم بأمر الله سنة ٤١١ هـ

وتذهب الرواية الكنسية إلى أبعد من ذلك ، فتقول لنا إن هذه السيدة النصرانية هى أم الخليفة الحاكم بأمر الله ولد العزيز ، وتنفرد بهذا القول الرواية القبطية المعاصرة ، وتقول لنا بالنص ما يأتى : «وكان الملك العزيز بالله بن المعز لدين الله قد رزق ولداً من سرية له رومية وجلس فى الملك من بعده ، ولقب بالحاكم بأمر الله ؛ وكان للسرية المذكورة التى هى أم الحاكم أخ اسمه أرسانى فجعلته بعنايتها بطرك الملكية ...»[١] ولكن الرواية النصرانية تنقل الينا فى غير موطن أن هذه السيدة هى أم ست الملك ابنة العزيز دون الاشارة إلى أنها أم الحاكم ؛ فيقول لنا يحيى الأنطاكى مثلاً ، وهو مؤرخ معاصر تقريباً : « وفى شهر رمضان سنة خمس وسبعين وثلثمائة صير اريستس خال السيدة ابنة العزيز بالله بطريركا على بيت المقدس ، أقام عشرين سنة ومات بالقسطنطينية ، وصير أخوه أرسانيوس أيضاً مطرانا على القاهرة ومصر »[٢] . ويقول لنا المكين بن العميد فى صراحة ووضوح : « إن العزيز بالله صاحب مصر تزوج امرأة نصرانية ملكية ورزق منها بنتا ؛ وكان للمرأة أخوان أحدهما اسمه أرميس (أريستس) صيره بطركا على بيت المقدس ، والآخر أرسانيس صيره بطركا للملكية على القاهرة ومصر ؛ وكان لهما من العزيز جانب لأنهما أخولة ابنته»[٣] ، هذا بينما تلزم الرواية الاسلامية الصمت إزاء هذه المسألة كلها ، ولا تشير الى أم الحاكم إلا بأنها « الست العزيزية »[٤] . بل نرى المقريزى يشير الى ارسانيوس وولايته لمنصب البطريركية دون الاشارة الى أنه صهر العزيز أو خال ست الملك[٥] . ومما يبعث الى التأمل أنه إذا كانت هذه السيدة النصرانية هى أم ست الملك ، فان العزيز يكون قد تزوجها أو تسراها وهو ولى عهد بالمغرب قبل سنة ٣٥٩ هـ — وهو تاريخ مولد ابنته — ففى أى ظروف حصل

(١) راجع المؤلف الكنسى (القبطى) المسمى « بسير البيعة المقدسة » والملحق بكتاب ساويرس بن المقفع (سير الآباء البطاركه) وقد اقتنت دار الكتب أخيراً منه نسخة فتوغرافية كاملة (رقم ٦٤٣٤ ح) وتاريخ الأنطاكى ص ١٦٤ و١٦٥ و١٨٥ ؛ والمكين بن العميد ص ٢٤٧

(١) المخطوط الكنسى المشار اليه
(٢) الانطاكى ص ١٦٤
(٣) ابن العميد ص ٢٤٧
(٤) راجع خطط المقريزى (الطبعة الأهلية) ج ٢ ص ٢٠٧
(٥) الخطط ج ٤ ص ٣٩٨

هذا الزواج أو التسرى ؟ وفى أى ظروف وقعت هذه الجارية الرومية المصرية فى يد البلاط الفاطمى بالمغرب ؟ هذا ما لا توضحه لنا الرواية ، ومن جهة أخرى فان الرواية الكنسية (القبطية) المعاصرة هى التى تنفرد بالقول بأن هذه السيدة هى أيضا أم الحاكم ، هذا بينما تكرر الرواية النصرانية المعاصرة والمتأخرة أنها هى أم ست الملك فقط ؛ ولو كانت نفس الأم هى أم الحاكم ، وهو الخليفة وشخصيته أهم من شخصية أخته ، لما ترددت الرواية فى ذكر هذه الحقيقة . وقد ولد الحاكم بعد مولد أخته بستة عشر عاما (سنة ٣٧٥ هـ) ولم يرزق العزيز خلال هذه الفترة إلا بابن يدعى محمداً وقد توفى طفلاً[1] ؛ وفى ذلك أيضا ما يبعث الى التأمل

أفلا نستطيع على ضوء هذه الملاحظات أن نرتاب فى هذا القول الذى تنفرد به الرواية الكنسية ، وأن نعتقد أن هذه السيدة النصرانية كانت أما لست الملك فقط ، وان « السيدة العزيزية » التى تشير اليها الرواية الاسلامية بأنها أم الحاكم هى سيدة أخرى ، وأنها هى الزوجة الشرعية ؟ هذا ما نميل الى الأخذ به ، خصوصا إذا ذكرنا موقف ست الملك من النصارى ، وهو موقف عطف دائما وموقف أخيها الحاكم وهو موقف اضطهاد وقسوة لا مثيل لها ، وصمت الرواية الاسلامية فى هذا الموطن لا يمكن أن يحمل على أنه صمت تحفظ وإغضاء ، لأن الرواية الاسلامية تقدم الينا ثبتا حافلا من الخلفاء الذين ولدوا من أمهات من النصارى ، وفى مقدمتهم عبد الرحمن الناصر أعظم خلفاء الأندلس

***

وتقدم إلينا الرواية النصرانية بعض تفاصيل عن حياة هذين الحبرين الكبيرين أريسطيس وإرسانيوس صهرى الخليفة العزيز بالله ؛ فتقول لنا إن الطائفة الملكية اشتد ساعدها فى عصر العزيز من جراء هذه المصاهرة الملوكية ، ووضعت يدها على بعض كنائس اليعاقبة ؛ وإن البلاط الفاطمى فى أوائل عهد الحاكم بأمر الله ، وفى عهد مدبر دولته برجوان الصقلبى ، انتدب أريسطيس بطريرك بيت المقدس ليكون سفير الحاكم إلى قيصر قسطنطينية باسيل الثانى فى سنة ٣٩٠ هـ (سنة ١٠٠٠ م) ، ولكى يعمل على عقد الهدنة والصداقة بين مصر والدولة البيزنطية بعد أن استطالت الحرب بينهما فى الشأم منذ عهد المعز لدين الله ؛ فسار أريسطيس إلى قسطنطينية مع رسل القيصر ، وقام بالمهمة ؛ وعقدت بين مصر والدولة البيزنطية معاهدة سلم وصداقة لمدة عشر سنين ، وأقام أريسطيس فى عاصمة بيزنطية أربعة أعوام حتى توفى فى سنة ٣٩٤ هـ [1]

أما ارسانيوس فأنه لبث بطريركا للملكية زهاء عشر سنين ؛ وكان فى أواخر أيامه قد اعتزل الحياة ، فى دير القصير الذى شيد فى بعض ربى المقطم ، وعكف على النسك والتعبد ؛ وفى سنة ٤٠٠ هـ (١٠١٠ م) حينما اشتدت موجة الاضطهاد الدينى التى أثارها الحاكم بقوانينه الصارمة ضد النصارى واليهود ، أمر الحاكم بهدم هذا الدير الشهير ضمن ما أمر بهدمه من البيع والأديار الأخرى ، فهاجمته الغوغاء ، وقوضت أبنيته ، ونهبت مقتنياته وآنيته ، وأخرج منه أرسانيوس مع باقى الرهبان الساكنين فيه ؛ وقضى أرسانيوس أشهراً أخرى فى بعض البيع حزيناً على ما أصاب قومه من الخطوب ؛ وفى ذات ليلة من شهر ذى القعدة سنة ٤٠٠ هـ نفذ بعضهم إلى مكانه المتواضع وقتلوه سراً ، واحتوت ابنة أخته ست الملك على ما كان له من المال والثياب والذخائر المقدسة[2] . ولم تحدثنا الرواية عمن قتله أو من أمر بقتله ، بيد أن فى هذا الحادث نفسه ما يبعث إلى الريب فى قرابة الحاكم بأمر الله بالحبر المقتول

تلك هى قصة زوج العزيز أو سريته النصرانية وقصة أخويها الحبرين البطركين ؛ وهى مصاهرة طريفة فريدة فى نوعها ، ولا تذكر لنا الرواية مثلاً آخر يرتبط فيه خليفة مسلم مع بعض خلفاء النصرانية برباط المصاهرة ، وإذا استبعدنا من الرواية ما يتعلق بالحاكم ونسبته لهذه الأم النصرانية ، فانه ليس ثمة ما يحمل على الشك فى جوهرها وتفاصيلها . بيد أن الرواية لا تحدثنا عن اسم هذه السيدة الرومية النصرانية التى سطعت فى قصر من أعظم القصور الاسلامية ، وفى ظل خلافة تطبعها الصبغة المذهبية بأعمق طابع ، ولا تحدثنا عن مصيرها

محمد عبد الله عنان

(١) النويرى — نهاية الأرب — النسخة الفوتوغرافية بدار الكتب ج ٢٦ ص ٦١ .

(١) الانطاكى ص ١٨٣ و ١٨٤ وابن الأثير ج ٩ ص ٤٢ ، والمقريزى ج ٤ ص ٦٨ و ٦٩ .

(٢) الانطاكى ص ١٩٧ و ٢٣٧

صفحة من طفولتى

ترتبط بصفحة من حاضرى

للأستاذ خليل هنداوى

« كان لى أخت فقدتها صغيرة أيام نكبة الحرب العظمى بالكوليرا . وما زال اسمها يطوى أيامى حتى استقر على صغيرة لى حلت مكان الأولى ؛ فكانت الأخت والبنت ؛ وكان لها اسمها ومقامها »

يا لشد ابتهاجى حين أراها تخطر أمامى ووجهها يتدفق نوراً بالصفاء ، وشعرها الأشقر يتموج كالشعلة !

تملأ وحدها مكاناً وتملأ أخواها مكاناً ،

وتفعم وحدتى أنساً وقلبى محبة ؛

فلا ألمحها إلا ضاحكة ، ولا أسمعها إلا مهللة ! . . .

كأنها ضحكة انطلقت بها الحياة ،

أو بسمة انجلت عن معنى الرضا .

أناديها باسمها ، فيهزنى اسمها لأنه وليد ذكرى أليمة ترتبط بها ذكريات . أراها فأرى فيها صاحبة هـذا الاسم أيام كانت تحيا بجانبى وتصـل طفولتى بطفولتها ، أيام كانت تتعانق أحلامنا وتتلاقى آمالنا . . .

أرى فيها صاحبة هـذا الاسم طفلة كما كانت بالملامح التى كانت . ولـكن العين التى أرى بها قد اختلفت وزالت عنها معانى الطفولة ! ولـكنى أراها وألمسها وأعانقها فأرى أن سلسلة هذا الزمان الطويل لم تكن خلال ذلك منقطعة ، لأنها استطاعت أن تثبت لى اتصال الموت بالحياة ، واستطاعت أن تعيد لى الميت باسمه وروحه !

أراها تخطر أمامى واثبة أو متهادية ، ويراها من مى بعينه كما أراها ، ولـكن عين الذكرى تمتد إلى أبعد من هـذا الحد ، فتراها متصلة بذكريات بعيدة الأمد ، تحملها كما تحمل عيناها نور غدها . تراها تحمل إلى شيئاً من طفولتى المطوية ، أناديها باسمها فأرى « يسرى » الأولى التى كانت تخاف كثيراً من الدخان كأنما صفاء روحها لا يحتمل أن يرى السواد يغشى السماء الزرقاء والتى كانت لا تجـد وسيلة إلى إهداء سلامها إلى أبينا الجندى إلا القمر !

كانت فى الخامس من ربيعها يوم زحف الهواء الأصفر بجنوده وويلاته ، يغشى المدينة فيأخذ منها جنوداً ، ويدخل البيت فلا يرضى إلا بكبشين أو ثلاثة ! أو بكل ما تنفس بحياة . كنا نسمع بصفته فنخشى ريحه ، ونرتاع من صوته ونحذر أن نلقاه فى مكان ؛ ولـكنه كان يمشى ولا يرى ، ويدخل ولا يحسه أحد . فأنشب مخالبه فى أخى الصغير . فـكانت « يسرى » تخشى الدنو منه ، ولـكنها كانت تسمع من الجارات يقلن لأمه : « إنه سليم لأن يديه لم يزرقا .. خاف من زرقة اليدين فهى علامة الموت » وما مر على الصغير ساعات معدودة حتى سقطت « يسرى » التى كانت تحذر وتبالغ فى الحذر على صغرها ، لأنها تفهم الموت شيئاً مروعا . وكانت أمنا تجاهد فينا لا تخشى أن ينشب المرض مخالبه فيها ، وما غلبته إلا بقوة اعتقادها وإيمانها . نحنت على سرير « يسرى » وقد رأت أخاها نجا بمعجزة ... ولـكن يسرى تتأمل فى يديها فترى أن الزرقة أحاطت بهما فتقول لأمها : « ها إننى أموت ، لأن يدى مزرقتان .. » فتوارى الأم وجهها لتذرف دمعتها بعيدة عن عينيها ! « إننى لن أشفى يا أماه لأننى لا أرى فى جسدى إلا الزرقة . » هاتى لى ثياب العيد — وكان العيد بعد أسبوع — من خزانتى ، أريد أن ألبسها كلها . هاتى ردائى الأحمر الذى أرسله إلى والدى من القدس . » لبست ثيابها واغتبطت برغم الألم ، ثم أخذها ذهول عميق عقبه سكرة الموت ، ولبثت حتى حان وقت وقوعها فى الداء ، فأسلمت روحها ولما يتنفس الفجر ! فبكت أمنا بهدوء يشقه بعض شهقات ، تحاول ألا نسمع وكنا نياماً ، وهى تخشى على أخى النـكسة ، حتى طلع النهار — وأوصت حفار القبور

تتراءى لى هذه الصفحة الأليمة فأراها واضحة السطور على رغم القدم ، وأذكر أننى نهضت فوجدتها كتلة زرقاء هامدة لا تنبض بالحياة ، فروعنى ذلك ولـكنى لا أذكر كيف بكيت ؟ فمشينا إلى المقبرة وهى على يدى الحفار لا يمشى خلفها إلا ثلاثة : أمها وجدتها وأنا ، أعدو خلفهما حافى القدمين ، ولـكنى أرى من وراء ظهر الحفار رأسها الملتف وقدميها الملتفتين . وكيف يمشى

أحد معنا والناس لا هون بموتاهم . فوجدنا على باب المقبرة ولداً لا أهل له يوارونه التراب وكان اللحد ضيقاً ، فطووا قدميه بالعنف حتى يتسع اللحد له ! فمشينا حتى أدركنا لحدها وكان واسعاً ، فقالت أمها :

إنه كثير السعة وهى صغيرة .

وسدّوها اللحد وهالوا على وجهها التراب . وكنت أظن أن وجهها توارى الى الأبد . فعدنا وأخذ النسوة يعزين والدتى قائلات :

— اشكرى الله على نجاة الصبى بهذه الفدية

ولعل هذه التعزية كانت مما تخفف عن الأم لوعتها ولكن مكان الولد لا يسد

« لكلٍّ مكانٌ لا يسد اختلاله »

بلى ظننت أن وجه يسرى قد توارى الى الابد

ولكن هاهى ذى الحياة تتمخض مرة جديدة عن « يسراى »

تعيدها إلى ابنة لا أختاً ؛ تعيدها قطعة من كبدى

لا أحفظ للاولى صورة ، ولا أذكر من ملامحها شيئاً ، ولكن جدتك — يايسراى — تقول لى : إنها عادت بملامحها ونضرة وجهها وكأنها هى . وإنها لا ترى فيك إلا ابنتها . . .

فأهلاً بك أختاً وبنتا !

وأهلاً بك ياشعلة حياتى !

خليل هنداوى

نظرية النبوة عند الفارابي

للدكتور ابراهيم بيومي مدكور

مدرس الفلسفة بكلية الآداب

— ٨ —

انتهى بنا الحديث في المقال السابق الى بيان أثر نظرية النبوة الفارابية في القرون الوسطى . ويظهر أنها لم تقف عند هذا الحد بل جاوزته الى التاريخ الحديث . ونرى واجباً علينا لاتمام هذا البحث أن نشير الى بعض المفكرين المحدثين في الغرب والشرق الذين حاولوا تفسير النبوة تفسيرا يمت بصلة الى النظرية الفارابية ؛ ولن نتحدث من بين فلاسفة الغرب إلا عن اسبينوزا الذى أشرنا في بحث سابق الى أنه يلتقى مع الفارابي في نقط كثيرة [١] . وأما مفكرو الشرق ومصلحوه فسنذكر من بينهم شخصيتين جليلتين كانت لهما اليد الطولى في نهضة الأمم الاسلامية الأخيرة وتقدمها العلمى والأدبى ، وهما السيد جمال الدين الأفغانى والأستاذ الامام . ولا نظن أحدا الى الآن حاول أن يربط آراء هذين المصلحين ربطاً وثيقاً بنظريات علماء الاسلام الأول ومفكريه ، اللهم إلا محاولات ضئيلة ترمى الى إيجاد علاقة بينهما ، أو بين الأستاذ الامام بوجه خاص من جانب وابن قيم الجوزية وابن تيمية والغزالى من جانب آخر [٢] . وإذا صح أن آراءهما الدينية قد ربطت بأقوال بعض أئمة السلف فأبحاثهما العقلية لا تزال حتى الساعة غير واضحة الصلة بنظريات فلاسفة الاسلام . وخطأ أن يظن أن هذه الصلة مقطوعة أو معدومة ، فأن السيد والامام إنما تم تكوينهما أولا وبالذات على حساب المصادر العربية ؛ وفى مجلة العروة الوثقى ما يشهد بأنهما كانا يدعوان الى دراسة فلاسفة الاسلام وتفهم أفكارهم [٣] . وسنرى بعد قليل كيف يلتقيان في مشكلة من أهم المشاكل الاسلامية

(١) مدكور ، الرسالة ، عدد ١٧٢ ، ص ١٦٦٨

(٢) I. Segach, Muhmed Abdo, dens Enqyc de. I,islam

(٣) العروة الوثقى ، المقالة الرابعة

كانا يعلم أن للصلة بين العقل والنقل بين الفلسـفة والدين شغلت الفلاسفة المحدثين كما كانت حجر الزاوية في فلسفة القرون الوسطى . وقد وقف اسبينوزا على هذا الموضوع كتابا مستقلاً غير معروف من جمهور القراء ، لأن نفوذ كتابه الآخر المشهور « الأخلاق » غطى عليه ، ونعنى به « رسالته الدينية السياسية » التى تتمم في رأينا مذهبه الفلسفى . ذلك لأنه إذا كان « كتاب الأخلاق » يوضح الحقائق العقلية ، فأن هذه « الرسالة » تشرح الحقائق النقلية . وهـذان الضربان من الحقائق متميزان عند اسبينوزا ومستقلان تمام الاسـتقلال ويقابلان علمين منفصلين : الحقيقة العقلية موضوع الفلسفة ، والحقيقة النقلية موضوع علم الآلـهيات ؛ واسبينوزا فيلسوف وعالم في الالـهيات في آن واحد ، فلا يستطيع أن يلغى إحـدى هاتين الحقيقتين ولا أن يدمجها في الأخرى ، بل يقرر أن كل واحدة منهما ضرورية ومطلقة النفوذ في مضمارها ؛ والدين إن لم يكن الحقيقة كلها حقيقى في ذاته ولا غنى للجمعية عنه [١] . غير أن الحقيقة الدينية تعتمد رأساً على الوحى والالهام ، فكيف يتم هـذا الوحى وبأنه وسيلة يستطيع الأنبياء الوصول إليه ؟ هذا هو السؤال الذى حاول اسبينوزا أن يجيب عليه . وفى رأيه أنا إذا تتبعنا الكتب المقدسـة جميعها وجدنا أن الالهامات النبوية المختلفة سواء أكانت عبارات صريحة أم صوراً رمزية إنمـا تتم بواسطة مخيلة قوية [٢] . وعلى هـذا لا تتطلب النبوة شرطا آخر سوى أن يكون الأنبياء ذوى خيالة نشيطة متنبهة [٣]

لا يمكننا أن نمر بهذه الآراء دون أن نفكر على الفور في الفارابي وفى الدراسات الفلسفية اليهودية في القرون الوسطى . حقا إن المعرفة النـاتجة عن الوحى والالهام لا تساوى في نظر اسبينوزا المعرفة العقليـة ، مع أنهما عند الفارابي متساويتان متكافئتان ؛ ولعل هذا راجع إلى أن اسبينوزا فيلسوف قبل أن يكون لاهوتياً ، وديكارتى قبل أن يكون فارابياً ؛ ولا شك في أن الأفكار الواضحة النيرة هى وحدها عند ديكارت سبيل المعرفة

(١) Brochord, Etnds, 336 — 337

(٢) Spinoza, Traité théologieo. politique, p. 18 .

(٣) Ibip., p, 24

في الأدب المقارن

الأدب العامي

في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

بداوة الأمة هي عهد طفولتها: فيها يكون أدبها ساذجا على صدق عاطفته، ضئيل الحظ من الفكر المستقيم على قوة شعوره؛ ويشبه دخول الأمة طور الحضارة والثقافة بلوغ الناشىء الحلم: إذ تنضج أفكارها وينتبه وعيها بما يحيط بها من مظاهر الكون ويزداد تأملها فيها واتصالها بها؛ ومن ثم يزداد أثر الفكر السليم والنظر الثاقب في آدابها بجانب الشعور الحار والعاطفة المتدفقة؛ على أنه لما كانت العاطفة عادة تقتصر على فريق من أبناء الأمة دون فريق، فأنه يصير للأمة المتحضرة أدبان: أدب راق للخاصة وأدب عامي للدهماء؛ ولاريب أنه كلما ازداد انتشار التعليم في الأمة كان ذلك كسبا للأدب الراقي؛ ولم توجد بعد الأمة التي يتوحد فيها الأدبان

وتزداد الهوة بين الأدبين تدريجا بارتقاء الحضارة وازدهار الثقافة وترفّه المجتمع: فتـدخل الأدب الراقي النزعة العلمية، وترتقي لغته وتتسع جوانبها، وتتهـذب لهجته وترق حاشيته، ويزداد تراثه من جيل الى جيل لاستعانته بالكتابة؛ أما الأدب العامي فيتداول بالرواية، ولذا يظل في تجدد وتحول وزيادة ونقص؛ تلونه المجتمعات المتعاقبة بألوانها، وتترك فيه العصور المتوالية مياسمها، ويظل ساذجا كأدب البداوة الأولى: يهتف بالغرائز والعواطف البسيطة، ويتحدث بأحلام النفس الانسانية في السعادة المطلقة وميلها الدائب الى الجمال والقوة والحق والفضيـلة، ويظل على ما يشوبه من خرافة وغرارة هو الثقافة الوحيدة التي تتمتع بها الطبقة العاملة

وقد كان للعرب على عهد حضارتهم أدبان كذلك: ساعد على قيام الأدب الراقي اعتـداد أشراف العرب بأدبهم القديم، وتمسكهم بلغتهم، وانتشار الثقافة والعلوم التي وَرَدَ مناهلها فريق من الأمة دون فريق؛ وساعد على ظهور الأدب العامي اختلاط العرب بالأمم وفساد لغة الكلام. وصار للانجليز كذلك أدبان منذ تحضروا وتثقفوا وامتزجت اللغة الانجلوسكسونية باللاتينية، واستخدمت في العلوم والآداب، وتوطدت قواعدها واتسعت جوانبها وأصبحت لغة مجتمع راق. فانفصال الأدبين الخاص والعامي أحدهما عن الآخر جاء مختلف الكيفية في الأمتين: ظهر الأدب العامي في العربية بفساد اللغة الفصحى وانحطاطها، وظهر الأدب الفصيح في الانجليزية بارتقاء اللغة العامية وارتفاعها

تختلف الأمتان في هذا، وتختلفان أيضاً في عـلاقة الأدبين الفصيح والعامي في الأزمنة التالية لانفصالهما: ففي العربية كانت الهوة بينهما سحيقة والاتصال يكاد يكون معدوما، لشدة ترفع الأدب الفصيح عن صاحبه، بل تجاهله لوجوده؛ أما في الانجليزية فكانت المسافة بينهما أقرب، والاتصال أوثق؛ وظل للأدب العامي دائما للمثقفين اعتبار، ورحب به الأدب الفصيح مراراً وخالطه بنفسه، واقتبس أساليبه وصوره، واصطنع مواضيعه ونغماته، فأفاد بذلك فائدة كبرى

فالأدبان الفصيح والعامي وإن اختلفا تهذُّباً لغة واستقامة تفكير وعمق نظرة وتنوُّع أشكال، يستقيان من معين واحد، هو النفس الانسانيـة، بميولها وأحلامها وآمالها. وإذا امتاز أولهما بصفات هي وليدة الحضارة العالية والمجتمع الراقي والعلم المنظم، فأن الثاني يمتاز بصفات الصدق والبساطة والقرب من الطبيعة التي هي مرجع كل فن؛ والأدب الفصيح عُرضة من آن الى آن لغلبة اللفظ فيه على المعنى ورجاحة الزخرف على الجوهر، وظهور التأنق والتحذلق على الشعور الصحيح والطبع المرسل، فهو بحاجة دائما الى العودة الى الطبيعة، وخير سبيل له اليها الأدب العامي، إذا نقاه من أوشابه واستخلص أجود عناصره

ظل للأدب العامي في انجلترا دائماً اعتبار، وظل كبار الأدباء مهما سمت ثقافتهم واتسعت نظرتهم إلى الحياة على علم به: فشكسبير وسبنسر وملتون طالما استقوْا من معينه قصصاً سائغاً ضمنوه آثارهم، والتقطوا من كنوزه ألفاظاً معبرة ألحقوها باللغة الشعرية الراقية فصارت من بنيتها؛ وأتيح للأغاني الشعبية من حين إلى حين أفراد من خاصة المثقفين عنوا بجمع ما وصـل إلى عهودهم منها، فكانت تلك المجموعات نصب أعين الشعراء،

يتخذون منها مواضيع لأشعارهم أو يحاكونها فى الأسلوب والنظم

وكان لتلك الأغانى فضل عظيم فى بعث النهضة الرومانسية فى أوائل القرن التاسع عشر ، بعد أن اختنق الشعر فى جو المدينة وأثقلته قيود الألفاظ والتقاليد ؛ فقد انصرف جمهور المتأدبين عن ذلك الضرب المتكلف من النظم إلى مجموعات الأشعار الشعبية التى توفر على جمعها ونشرها إذ ذاك نفر من الأدباء ، وضمنوها ما وصل اليهم من مقطوعات منذ عهد القرون الوسطى فنازلاً ، بعضها يدور حول السحر والطلاسم ، وبعضها من نسج الخرافة ، وبعضها مزيج من الخرافة والتاريخ ، وكلها مملوءة بحب الطبيعة ووصف مناظرها ؛ وكان لاسكتلندا وأدبائها فضل كبير فى تلك الحركة ؛ فقد أخذ الكثير من الأغانى من أدبها العامى ، وقام أدباؤها بالجانب الأكبر من ذلك الجمع والنشر ، وقاموا بالرحلات بين أريافها وحزونها ينقلون عن الزراع والرعاة أغانيهم وأسمارهم

ومن الاسكتلنديين أيضاً كان الرعيل الأول من الشعراء الذين نظموا أشعارهم فى التغنى بالطبيعة وحياة البسطاء من الفلاحين والرعاة وحياة الفروسية الغابرة ؛ ومن أولئك ألان رمزى وروبرت برنز ووالترسكوت . وقد كان ثانى هؤلاء فلاحاً قحاً ، فعبر فى شعره عن حياة فلاحى اسكتلندا وتقاليدهم وأفراحهم وأتراحهم ؛ أما الثالث فقد كان على نقيض ذلك أرستقراطياً سليل أسرة تمتُّ إلى فرسان العصور الوسطى ، فاحتفى شديد الاحتفاء بالأغانى الراجعة إلى تلك العصور ، وازداد شغفاً بالأغانى الشعبية حين اطلع على ما ترجم منها عن الألمانية ، فطاف فى اسكتلندا طلباً للاستزادة ، وجعل محصوله من كل ذلك مادة لأشعاره وقصصه التى رفعته فى زمنه وبعده إلى مصاف كبار الأدباء ، وأكسبته شهرة عظيمة فى القارة الأوربية

وفى هذا الجو المملوء بحب الطبيعة والبساطة والشعور الصادق ، نشأ وردزورث وكولردج ثم شلى وكيتس ، وهذه الروح الخافقة المأخوذة عن الأغانى الشعبية هى التى أوحت اليهم أشعارهم البديعة وجعلتهم ينهجون بالشعر نهجهم الطريف . وكان وردزورث أحرص الجميع على اختيار المواضيع البسيطة لقصيده ، واختيار أشخاصه من بين الريفيين والدهماء ، واستعمال ألفاظهم بذاتها فى شعره ؛ وقد جمع باكورة ما نظمه على ذلك النمط فى كتابه « الأغانى الشعرية » الذى أخرجه بالاشتراك مع كولردج ، وصدَّراه بمقدمة شرحا فيها المذهب الجديد المستمدة روحه من روح الأغانى والأقاصيص العامية

ووجد الأدب العامى لنفسه مسلكا جديداً إلى الأدب الفصيح ، حين تقدمت القصة وتناولت الحياة الاجتماعية بالوصف الدقيق ، وأولعت بتصوير شتى الشخصيات من الطبقات الفقيرة والأوساط الريفية ، وتناولت معاملات تلك الطبقات والأوساط ومحاوراتها وعقلياتها بالعرض والتحليل ، وتوخت الأمانة للواقع بنقل ألفاظ القوم ومحاكاة أساليبهم فى الخطاب ؛ وفى روايات هاردى تصوير لكل ذلك دقيق لا يبارى دقة ونفاذ بصيرة ؛ وهكذا كسب الأدب الفصيح كسباً جديداً من الأدب العامى

أما فى العربية فكان نصيب الأدب العامى دائماً الزراية والتجاهل ؛ وكان أول ما يأخذ به المتأدب نفسه التخلص من شوائب العامية لفظاً ومعنى وأسلوباً ، وشر ما يوصم به لفظ أنه عامى ، أو معنى أنه سوقى ؛ وأبعد ما يفكر فيه الأديب أن يخالط العامة أو الزراع ليأخذ عنهم ما يتحدثون فيه وما يتأدبون به ، من قصص ممزوج بالخرافة ، وغناء متسم بالسذاجة ، أو يطوف فى الأرض طلباً لذلك كما طاف سكوت وأمثاله فى شعاب اسكتلندا ؛ إنما كان أدباء العربية يشدون الرحال إلى البادية طلباً للفصيح من الكلام والأصيل من الأساليب ، والمأثور من أقوال العرب يُتَّخذُ حجة فى المناظرة ، وأنموذجاً فى الانشاء ، وقد عيب على بشار قوله فى جارية :

ربابة ربة البيت تصب الخل فى الزيت
لها عشر دجاجات وديك حسن الصوت

لأنه تناول موضوعا بسيطاً عامياً وتحدث فى سذاجة لا تليق بالشعر الفصيح . وإنما كان الأدب العربى فيما ارتضى له أصحابه واستن له نقاده ، أدب بلاط يحفل بذكر الملوك لا السوقة ، ونديم أرستقراط يشارك فى حياة العلية ويشمخ عمن دونهم ، ولا يرى فى حياة الدهماء وحيا لقول ، ولا موضوعا لتفكير ، فلم يكن من شعراء العربية من يحتفى بوصف أشخاص قريته كما فعل جولد سميث فى « القرية المهجورة » وصفا كله حب وحرارة ، ولا من يرثى أبناء القرية فى مراقدهم الأخيرة ، وهم الذين أفنوا العمر كداً دون أن تسمع الدنيا بأسمائهم أو يصمدوا إلى المجد على أكتاف غيرهم أو دمائهم ، كما فعل جراى فى مرثيته

وقد أثر عن بعض شعراء العربية كأبي نواس وأبي تمام ، أنهم كانوا يتلقفون أحياناً أقوال العامة فيصوغونها شعراً ، كالذى رواه ابن الأثير من أن أبا تمام وصل من بعض قصيده إلى قوله : « وأحسنُ من نَور يفتّقه الصَّبا » وأرتج عليه ، حتى مر بالباب سائل يقول : « من بياض عطايا كم فى سواد مطالبنا » ، فأكمل أبو تمام البيت : « بياض العطايا فى سواد المطالب » ، على أن ذلك كان نادراً ضئيل الأثر . أما الاحتفال للأدب العامى ، ومحاولة الانتفاع به ، والرغبة فى جمعه ، والعمل على تلقيح الأدب الفصيح بعناصر الحياة فيه ، فذلك كان بعيداً جداً عن أذهان أدباء العربية

لم يستفد الأدب العربى الفصيح من شقيقه العامى شيئاً ، مع أنه كان أحوج كثيراً من الأدب الأنجليزى إلى تلك الاستفادة ، بل لعل رفضه الاستفادة من أدب العامة كان من أسباب اضمحلاله وسقوطه : فقد أبى الأدب العربى إلا اعتزال أدب العامة بنفس الاصرار والشموخ اللذين اعتزل بهما آداب الأمم الأخرى ، وتعالى عليه تعاليه عليها ؛ ورأى المسعودى وابن النديم نسخاً من قصص ألف ليلة وليلة ، التى بدأت تتجمع حولها آداب العامة فاستخفا بها وحقراها ، ولم يخطر لهما أن بها مادة لعبقرية الأديب أو لقاحا للأدب ، سخرا من الأقاصيص الشعبية فى القرن الرابع الذى كانت الصنعة اللفظية فيه قد ركبت الأدب ، والتقاليد قد كبلت المنظوم والمنثور ، ولو التفت الأدباء إلى ذلك الأدب الشعبى الناشىء واستوحوه جديداً من القول ، لربما شهد الأدب العربى نهضة جديدة وإحياء كالذى شهده الأدب الانجليزى فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن الذى يليه

والحق أن الأدب العربى العامى قد احتوى من المواضيع الأدبية والأشكال الفنية ما أعوز الأدب الفصيح ، بل إنه احتوى من ذلك على ما هو أشبه بالأدب وأنهض بوظيفته وأقرب إلى التعبير عن الشعور . والحق أن الأدب الفصيح ليس بالترجمان الصادق المستقل للمجتمع العربى ، ولا هو بالسجل الكامل لنتاج الذهن العربى وخلاصة النفس العربية فى تعاقب العصور ، والأدب العامى أصدق وأوفى منه فى كل ذلك

فالأدب العامى حافل بآثار الخيال ؛ مملوء برائع القصص ، وهو ما يعوز الأدب العربى الفصيح منثوره ومنظومه ؛ فالقصة الاجتماعية ضرب من الأدب لم يألفه أدباء العربية ، والخيال الذى أولع به الشعراء واشتهر به البحترى خيال كاذب ، إنما هو وهم ومغالطات صبيانية : من توهم أطياف أحبة لا وجود لهم ، واختراع مواقف للوداع لا طائل تحتها ؛ ولو فطن الأدباء لأخذوا بيد القصة فرفعوها من عاميتها إلى لغة الفكر المثقف والوضع المهذب ، فأضافوا بذلك إلى الأدب فناً يجد فيه متحولاً عن فنونه العتيقة

والأدب العامى حافل بضروب الأوزان والقوافى الشعرية المتداخلة ، وهى الأشكال التى رفضها الأدب الفصيح وظل متمسكا دونها بالقصيدة الموحدة القافية ، وأبعدها عن حظيرته فالجأت إلى حظيرة الأدب العامى ؛ على أن تلك الموشحات التى راجت فى الزجل دون الشعر أدل على الرقى الأدبى وأقدر على التعبير عن شتى المقاصد من القافية الموحدة ، فتلك فائدة أخرى ما كان أحرى الأدب الفصيح أن يستفيدها من الأدب العامى ؛ ولكن الأرجح أن ذيوع تلك التوشيحات فى أدب العامة زاد الأدباء صدوداً عنها فيما يحتفون به من أغراض القول

وأسباب هذا الجفاء الذى استحكم بين الأدبين الفصيح والعامى فى العربية هى : روح المحافظة التى سادت الأدب الفصيح ، والتبجيل المظيم لآثار الأقدمين ، والاعتداد الشديد بلغة الضاد التى هى لغة الكتاب المنزل والدولة ؛ وهى عوامل نماها وقواها اعتزاز العرب فى صدر الاسلام بقوميتهم وتعاليهم عمن عداهم من الشعوب ، وحرص أبناء تلك الشعوب على التشبه بهم بحذق لغتهم وتقليد أساليبهم ؛ كل ذلك جعل للفظ عند الأدباء التقديم على المعنى ، فكل قول عدم اللفظ الفصيح هو على سوق حقير لاقيمة له ، وجعل لأساليب العرب الأقدمين مكانة رفيعة ، فكل قول شذ عنها ناب مستهجن ، وكل احتذاء لها مهما أرهقه التكلف وخرج به التقليد عن طور المعقول والمحسوس ، فهو مقبول معدود فى الأدب ؛ هذا إلى ماتقدمت الاشارة اليه من تعلق الأدباء بأهداب الملكية والعلية ابتغاء النوال ، مما نأى بجانبهم عن جانب العامة

فالأدب الفصيح استحال فى حيز تلك التقاليد والمراسيم إلى

قوالب متحجرة ، وأوضاع متصلبة ، غير حر الحركة ولا سهل التجديد ولا قابل لتأثير من الخارج ، لا يتأثر إلا بماضيه ، بتراث العرب الأفحاح الذين قصدوا القصائد ونسبوا ونخروا وهجوا وارتجلوا الخطب ؛ وتلك حال إذا صار اليها الفن جمد وبعد عن الأمانة للحياة والتصوير لحقائقها . وشبيه بذلك ماصار اليه فن النحت وفن التصوير عند قدماء المصريين من جمود وزيغ عن الحقيقة ، حين كبلتها الأوضاع والرموز الدينية

وقد أصبح لزاما على الأدب الفصيح وقد كبلته التقاليد بالقيود ، وأحاطته الصناعة بالسدود ، أن يترك التعبير الصحيح عن شعور المجتمع للادب العامى ، وذلك هو الذى تم دون أن يشعر رجاله ، ودون أن يقلعوا عن كبريائهم وترفعهم عن الشعب . فظلوا فى تقاليدهم الجامدة وبراعاتهم اللفظية سادرين ، وقد نما الأدب الشعبى واتسع ، وحوى من صادق المشاعر والعواطف ، وجميل المحاورات والمناظر ، ما أعوز الأدب الفصيح ، وماقربه إلى نفوس الشعب وإلى نفوس الأمم الأخرى معا :

فقد فطن الأوربيون من عهد الحروب الصليبية إلى ما فى الأدب العربى من جمال وعبقرية ومتعة ، فتداولوا أقاصيصه وأغانيه وحاكوها فى آدابهم الشعبية وخلطوها بها ، وترجموا مجموعات منها إلى لغاتهم فى شتى الأزمنة ، ولم يألوها حفاوة وامتداحا ، وعرفوا فضلها فى إدخال العنصر الرومانسى فى آدابهم العالية ، وهى نفس الوظيفة التى أداها أدبهم الشعبى ؛ أما موقفهم من الأدب العربى الفصيح فكان خلاف ذلك : فأنهم كلما حاولوا دراسته والانتفاع به فى آدابهم صدهم عنه ما فيه من غرابة معان متكلفة لا تمت إلى الحياة الصحيحة ، ومن زخارف ألفاظ يحتفى بها أدباء العربية كأنها حقائق مجسمة ، فاذا ترجمت لم تعد شيئاً مذكورا ، فرجعوا خائبين وعزوا تلك الغرابة إلى اختلاف عقليتى الشرق والغرب ، وما هو كذلك وإنما مرجعها ما خالط الأدب الفصيح من تقاليد جامدة شبيهة بالرموز الدينية ، بعدت به عن التعبير عن شعور النفس الانسانية ، شرقية كانت أو غربية

فالأدب العربى العامى قد احتوى من عناصر الصدق فى الشعور ، وتصوير المجتمع ، ووثبات الخيال ما أعوز الأدب الفصيح كثيرا ، وهو مع ذلك قد لقى الاهمال والازدراء من المثقفين وخسر الأدب الفصيح معونته فى العصور الماضية ، وهو إن لم يكن أحرى من الأدب الفصيح بالدرس ، وأكثر منه فائدة لمؤرخ الأدب والمجتمع ، فليس دونه فى تلك الوجوه ، وهو خليق أن يدرس معه جنباً إلى جنب ، وتجمع آثاره المتخلفة من شتى العصور ، ففيها هى ذاتها متعة جليلة ، وفيها بجانب ذلك للشاعر والقصصى ما يبعث الالهام ، ويبسط مناحى التفكير والقول ، ويدنى من الطبيعة والصدق

فخرى أبو السعود

اليقينية غير أنه بالرغم من هذا الخلاف فمن المسلم أن الفيلسوف العربي والفيلسوف اليهودي متفقان على أن قوة الخيالة شرط أساسي في النبوة . وهنا نتساءل : هل هذا الاتفاق مجرد مصادفة أو أخذ اسبينوزا عن الفارابي بعض آرائه في النبوة ؟ إذا ما لاحظنا أن الأول درس في عناية مؤلفات ابن ميمون أمكننا أن ندرك الصلة بين الأفكار الاسبينوزية ونظرية النبوة الفارابية .

ونحن نلحظ من جهة أخرى أن مذهب السببية عند الفيلسوفين متحد ، وأنهما يقبلان فكرة التنبؤ بالغيب دون أن يكون لها أي أثر في مجرى القوانين الطبيعية . ففي مقدور ذوي النفوس الممتازة أن يقفوا أثناء اليقظة أو في حالة النوم على الأمور المستقبلة ويتكهنوا ببعض الحوادث التي ستحصل غداً أو بعد غد لا محالة [١] . وعلى كل حال فنحن لا نذهب مطلقاً إلى أن اسبينوزا أخذ عن الفارابي مباشرة ، لأنه ما كان يعرف العربية ؛ وبعيد أن يكون قد وقع في يده شيء مما ترجم من كتب الفارابي إلى اللاتينية . وكل الذي نعتقده أنه استقى بعض الأفكار العربية من مصدر ثابت هو كتاب « دلالة الحائرين » لابن ميمون ، وفي هذا الكتاب ، كما قدمنا قسط وافر عن نظرية النبوة

ولنعد الآن مرة أخرى إلى الشرق وإلى السيد جمال الدين الأفغاني والأستاذ الامام بوجه خاص . فأما السيد فلم يخلف لنا مؤلفات كثيرة نستطيع أن نقرأ فيها كل أبحاثه ونظرياته ، وفيما وراء « رسالته في الرد على الدهريين » ، و« تاريخه للافغان » لا نكاد نجد له إلا مقالات متفرقة في « العروة الوثقى » وفي بعض الصحف والمجلات الموجودة في ذلك العهد [٢] . وكأنما اكتفى بأن يلقن أتباعه وتلاميذه تعاليمه دون أن يودعها بطون الكتب شأن سقراط وطائفة من المصلحين . هذا إلى أن حياة الاضطراب والرحلة والانتقال التي قضاها ما كانت تسمح له بالهدوء الكافي للجمع والتأليف . ومهما يكن فقد أدلى في موضوع النبوة بآراء جديرة بأن تسرد هنا . وذلك أنه أثناء مقامه الأول في القسطنطينية سنة ١٨٧٠ دعي إلى إلقاء محاضرة في دار الفنون . ويظهر أنه شاء أن يكون موضوع المحاضرة متناسباً مع المكان الذي ألقيت فيه ، ولهذا تحدث عن فائدة الفنون . وفي خلال هذا الحديث شبه الجمعية بجسم مرتبط الأجزاء والأعضاء ، ولكل عضو من أعضائه خاصة . ثم انتقل من هذا إلى أنه لا حياة للجسم إلا بالروح ، وروح هذا الجسم هي النبوة أو الحكمة . فالنبي والحكيم من الجمعية الانسانية بمنزلة الروح من البدن . وكل ما بينهما من فارق : هو أن النبوة منحة إلهية لا تنالها يد الكاسب يختص الله بها من يشاء من عباده « والله أعلم حيث يجعل رسالته » في حين أن الحكمة تنال بالبحث والنظر . وفوق ذلك فالنبي معصوم من الخطأ والزلل ، بينما الحكيم يجوز عليه ذلك ويقع فيه [١] وأول شيء يستخرج من التشبيه السابق أن النبي عضو وعضو هام من أعضاء الجمعية الانسانية ، وأن النبوة مهمة ووظيفة من الوظائف الضرورية للمجتمع . وفي هذا ما هيأ السبيل لشيخ الاسلام حسن فهمي أن يثيرها شعواء على السيد متهماً إياه بأنه يزعم أن النبوة فن ، وأن النبي صانع . وقد أحدثت هذه التهمة ضجة عنيفة في صحف الشرق المختلفة ، وترتب عليها أن أرغم السيد على مفارقة استامبول سنة ١٨٧١ [٢]

(التتمة في العدد القادم) ابراهيم بيومي مدكور

(١) Brochard, Etudes, p. 335

(٢) Goldziher, Gyamâl al Dìn dans, Encyc qe l'Islam t. I. p. 1039

(١) Ibid., 1037—Browee The Tersian Bexolution, p.7

(٢) جورجي زيدان مشاهير الشرق ج ٢ ص ٥٤ — ٦٦

قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكى

مدير مصلحة الكيمياء

عزرائيل يقبض بيد صفراء

وصل الفائت : بنى ريد رئيس بعثة الحمى الصفراء ومساعده كارول بيتا صغيراً وأناما فيه ثلاثة رجال ، الطبيب كوك والجنديين فوك وجرنجان ، أناماهم فى أقمصة الموتى بالحمى وفى دمائهم ، فلم تصب الحمى أحداً منهم . إذن فالحمى لا تنتقل من ثياب المرضى ولا من قذرهم ، وإنما من البعوض . وخشية أن تكون الحمى لم تصبهم لأنهم بطبيعتهم حصينون ، حقنا أحدهم بدم مريض ، وسلطا على الآخر بعوضة وبيئة ، فجاءت الحمى كليهما

— ٥ —

وبينا هذه التجارب تجرى كان رجل غير جندىّ من أَهْيُو Ohio [1] كاسف البال حزيناً . هذا جون موران John Moran الذى انتصب له ريد قائماً ورفع له يده بالسلام . تذكُرُ أنه تطوع « فى سبيل العلم والانسانية » ورفض بتاتاً أن يأخذ أجراً ، وقرصته بعوضة الحمى ذات الأقلام الفضية البيضاء ، وبعد ذلك قرصته مراراً بعوضات مختارات تحمل السم نقيعاً فى بطنها ، ولكنه صمد وا أسفاه لكل هذا وظل صحيحاً سليما . فحار ريد ماذا يصنع به

ثم أسعده الخيال فقام فبنى له بيتاً صغيراً ثانياً إلى جانب ذلك البيت الكريه الأول ، وكان هذا البيت الجديد على نقيض جاره القديم . فكانت له نوافذ فى قبالة الباب حتى يجرى فيه الهواء ، وكان بارداً ، وكان به سرير لطيف نظيف عُقِّم فراشه بالبخار . وعلى الجملة كان منزلاً ترضاه الصحة غاية الرضاء ، فكأنما بُنِى خصيصاً لمسلول يعيش فيه ليطيب ؛ وأقام فى وسط البيت ستراً من ثوب شفٍّ دقيق ضاقت فروج نسجه فلا تأذن لأصغر بعوضة أن تنفُذ منها . ونال الستر من البيت عدا الحائطين سقفه وأرضه

وفى اليوم الحادى عشر من ديسمبر عام ١٩٠٠ فى الساعة الثانية عشر ظهراً دخل البيتَ مُورانُ بعد استحمام ، وليس عليه من الثياب غير قميص فضفاض للنوم . ومضت خمس دقائق ، فجاء ريد وكارول بوعاء من زجاج فتحاه فى البيت فخرج منه خمس عشرة من بعوضات أنثيات عطشى تطنّ حنيناً إلى شربة من دم . وكانت كل واحدة من هذه الخمس عشرة شربت فى أيام مختلفات قبل هذا من دم صِبيةٍ صفر الوجوه فى مستشفى لاس أنيماس

دخل موران إلى هذه الحجرة النظيفة الصغيرة بعد استحمامة فى قميص واحد ورقد على سريرها النظيف وانتظر القدَرَ الذى يكون . هذا موران ، فهل يسمع به أحد من الناس الآن ! وبعد دقيقة طن البعوض حول رأسه . وبعد دقيقتين قرصه البعوض . وفى ثلاثين دقيقة كنت تراه راقداً سطيحاً وفى جلده عدّة وخزات وخزها إياه البعوض وهو صاغر مستسلم لا يؤذن له حتى فى شفاء غليله بدق هذا البعوض

وعاد للقرص فى منتصف الساعة الخامسة من نفس اليوم ، وعاد إليه مرة ثالثة فى غد اليوم ليعطِى الفرصة لأناث البعوض التى لم تعثر عليه فتعضه ، لتعثر عليه وتعضه حتى تشتفى منه . وكان إلى جانب موران فى النصف الآخر من البيت شابان يعيشان فيه لا يفصلهما عن موران وعن بعوضه غير الستر الشفاف ، وعاشا فى هذا النصف ثمانية عشر شهرا فى سلام

أما موران ففى صبيحة عيد الميلاد [1] من عام ١٩٠٠ استقبله العيد بالهدايا الآتية : وجع ينبض فى رأسه ، وحمرة فى عينيه يزيدها نور الشمس ألماً ، وهمود بلغ منه حتى عظامه ؛ لقد هدّه البعوض شرّ هدّة ، وأطاح به حتى كان من الموت على قيد شَمره ؛ ثم أخذت الأقدار بيده فحمد اللهَ ريدُ على أنه اشتفى ، ولكنه اشتفى ليعيش فى خمول ذكر ما استحقه أبداً ، وعلى كل حال فقد نال أمنيته — فى سبيل العلم والانسانية ؛ والنتيجة أنه هووفوك وجرنجان وكوك وكل من تطوع معهم أو أوجر ، كل هؤلاء أثبتوا أن البيت الأول بيتَ الكرب والهول خلا من البعوض فخلا من كل خطر برغم قذره ، وأن البيت الجميل النظيف الثانى دخل إليه البعوض فدخل إليه كل خطر برغم

(١) بلدة بالولايات المتحدة وقد ذكرناها سابقاً

(١) هو ميلاد المسيح وهو يوم ٢٥ ديسمبر

أناقته ونظافته . ووقع ريد أخيراً على جواب كل سؤال فى معضلته الكبرى ، وكتب فى أسلوبه المتيق يقول : « إن أول شرط يجب توفره فى بناء ليكون وبيئاً بالحمى الصفراء أن يحل فيه بعوض عض من قبلُ مرضى بالحمى الصفراء »

كلة ما أبسطها . وكلة ما أصدقها . وانتهى الأمر وكان ما كان . وكتب ريد إلى زوجه : « إن الدعاء الذى بتّ أدعو الله إياه عشرين عاماً : أن يكون من نصيبى بطريقة ما وفى وقت ما أن أخفف عن الانسان شيئاً من شقاء الانسان ، هذا الدعاء قد استجابه الله ! وهذا العام الجديد يُطلّ علينا ، فألفَ عام وأنتِ بخير يا عزيزتى . . . أنصتى ! أنصتى ! هؤلاء عشرون بوّاقاً ينفخون أبواقهم معاً يسترقدون العام القديم »(١)

أم هم ينفخون أبواقهم تحية لازار ! أم هم ينفخون أبواقهم احتفالاً بالحمى الصفراء أنْ أمكن محوُها من على ظهر الأرض ! أم ينفخ هؤلاء الموسيقيون أبواقهم إنذاراً بالقدَر الخبىء الذى لن يلبث أن يجىء أفراد هذه البعثة الصغيرة بُعَيْد ساعة نصرها بقليل . . .

— ٦ —

وجاءت الدنيا إلى هبانا ، وهتفت هناك لريد . وجاء العلماء إلى هبانا واشتركوا فى نقاشهم العابس وفى التساؤل والتشكك المعهود . ثم جاء وليم كُرُوفورد جُرجاس William Crowford Gorgas (٢) ، وكان رجلاً مثلَ ريد لا يُعاب ، جاء إلى هبانا يتدرّب استعداداً لصنيعه الأكبر الأخلد فى بنما Panama ، فدخل إلى ميازيب هبانا وإلى مجمّعات مراحيضها وإلى أحواض مائها وشن فيها الغارة على البعوضة الاستيجوميّوبّة (٣) ، وفى تسعين يوماً خلصت المدينة من الوباء لأول مرة بعد قرنين فلم تقع فيها إصابة واحدة من الحمى الصفراء . انقلابٌ كأنه السحر ، ولكن مع هذا بقى الشك يساوز الأطباء العلماء والنطاسيّين ذوى اللحى العبوسة ، فى أوربا وأمريكا ، فظلوا يسألون عن هذا ، ويعيدون الكرة على هذا ، فِعْلَ الذى لم يطمئن قلبه . . . وذات صباح

دخل خمسون من هؤلاء الشكاكين بيت البعوض المذكور وأخذوا يقولون : « إن هذه التجارب بارعة جميلة ، ولكن نتائجها يجب أن تُمحَّص وتوزن من غير عوَجٍ أو ميل . . . » . وبينما هم فيما هم فيه انكشف غطاء وعاء به بعض أنثيات البعوض ، انكشف بالطبع اتفاقاً ، فخرجت البعوضات منه وذهبت قُدُماً إلى وجوه هؤلاء العلماء تطن طنيناً وفى عيونها بسمة الخبيث ولهفة الجوعان . فواحسرتا على العلماء الأجلاء ! طار الشك من قلوبهم ، كما طارت أرجلهم بهم — إلى الباب . وارتد الستار بينهم وبين البعوض بقوة صاحبة تَحكِى عن قوة اقتناعهم بالذى قال ريد . ثم انضح الأمر فاذا بالبعوض لم يكن لُوِّثَ بالحمى

بعدئذ جاء جرجاس ، وقد سبق ذكره ، وجاء معه جون جتراس John Gattéras وكان كوبيّا عمدةً فى الحمى الصفراء ، وكانا كلاهما اقتنعا فى الذين اقتنعوا بالتجارب التى أجريت فى معسكر لازار ، فاختطا الخطط لتطبيق نتائج هذه التجارب . وكانت خططاً جميلة ، ولكنها كانت مع الأسف سريعة نَزِقة . قالا : « إن من الغريب أن تلك الاصابات التى حدثت فى معسكر لازار لم يمت أصحابها . إنها كانت إصابات ذات أعراض نموذجية من الحمى الصفراء ، ولكن أصحابها اشتفوا منها وصحّوا من بعدها . أفيكون سبب ذلك أن ريد لم يعملهم على أرجامم طويلا وبعث بهم إلى الفراش ليستريحوا سريعاً » . وبدآ يلعبان بالنار . قالا : « سنأتى بنفر من المهاجرين الاسبانيين الذين وردوا حديثاً ، فَهُمْ غير حصينين ، ثم نُصيبهم بالحمى إصابة شديدة ، ولكن على أسلوب ريد لتكون العاقبة مأمونة » . هكذا فكّرا وهكذا اختطّا ، وما كان أيسر محو الوباء بأبادة البعوض وهو من البعوض الأنيس الذى يسكن منازل الناس ويتناسل فى أماكن بين ظهرانيهم غير خافية . ولكنهما قالا : « وبهذا نكون أيضاً قد أعدنا تجارب ريد وخرجنا على نفس نتائجه فزدناها ثبوتاً »

وجاءا بالمهاجرين ، وكانوا قوماً جهلاء لا يفقهون ، فأنصتوا للذى قالاه لهم واطمأنوا إلى أن الاصابة ستكون مأمونة العاقبة . ثم عض البعوض سبعة منهم ، وعض ممرضة أمريكية شابة جسورة . فخرج من المستشفى من هؤلاء الثمانية مهاجران والممرضة ، وقد أمن الثلاثة عواقب للمرض جديدة ، وأمنوا عواقب الأمراض أجمع ، وكلَّ همٍّ من هموم الدنيا . خرجوا محمولين على الأعناق والطبول تدق دقاً بطيئاً خافتاً حزيناً . . .

(١) فى المعسكرات ينفخ البواق البوق ليلا لترقد الجند وتطفأ الأنوار ويسود السكون . وإنى لأحسب هؤلاء البواقين يسترقدون قرناً لا عاماً فقد كان العام عام ١٩٠٠ (المترجم)

(٢) طبيب فى الجيش الأمريكى خلد اسمه عند ما كافح الحمى الصفراء فى منطقة قنال بنما حتى محاها . وتملك زمام حمى الملاريا فيها . وبذلك نجح حفر القنال (المترجم)

(٣) هذا اسم بعوضة الحمى الصفراء ، بل هكذا كانت تسمى عندئذ

ألا ما كان أبرع ريد فى بحثه . ألا ما كان أسعده حظًّا فى بحثه — فى تلك التجارب التى خلت من الموت فى معسكر لازار . . .

واستولى الذعر على هبانا ، وأخذت الجماهير تتجمع وتتحدث بالغضب اصطخاباً ، ومن ذا الذى يلومهم والحياة الانسانية عند كل الناس غالية مقدسة

كان كارول قد عاد إلى هبانا ليقضى فى بعض مسائل علمية صغيرة ، وكان رجلاً كالحنوطى [1] ذهبت العاطفة من قلبه ، وكان فوق ذلك جندياً . قال : « نحن الآن نستطيع أن نستأصل الحمى الصفراء فلا تكون ، ونحن الآن نعلم بأى وسيلة تنتقل من رجل لرجل ، ولكن الذى لا نعلمه هو الشىء الذى يسببها » . هذا ما قال كارول لريد ، وهذا ما قاله ريد لكارول ، ولا بد من اعترافنا ، واعتراف كل أحد معنا ، بأن الشىء الذى لم يعلماه بعد ، والذى ظلاّ يعتزمان طلبه ، إنما كان أمراً علمياً محضاً لا يَهُمّ إلاّ من يطلبون المعرفة للمعرفة . وإنى أسألك أكان هذا امراً من الخطورة بحيث يستحق ضياع الأرواح ، ولو أرواح مهاجرين إسبانيين ؟ أما أنا فلن أستطيع جواب هذا السؤال . وأما ريد وكارول فقد أجاباه بنعم . ولا عجب . فهما بدآ هذا الأمر جنديّين يطيعان أمراً ، وبدآه إنسانين يخاطران بروحيهما فى سبيل الانسان ، وأذنا للبعوض أن يصبّ سمّه فى جلديهما فى سبيل المعرفة القاسية الباردة ، ثم زهاهما المجد الذى يكون من كشف الغطاء عن كل مجهول . . .

وتأكد لديهما أن الوباء ليس له بَشيلّة تُرى ، أو أية مكروبة أخرى تُريها أكبر المجاهر . لقد نظرا فى أكبدة الناس وأحشاء البعوض طلبا لهذا المكروب عبثاً . ولكن أمعنى هذا أنه لا يوجد ؟ كلا . فهناك احتمالات خفية أخرى . فهناك احتمال وجود نوع أصغر من المكروب دق حتى عن أكبر مكرسكوب لا يحسن وجوده إلا بقتل الرجال ونفث سمه الخفىّ فيهم ، قد تكون هذه طبيعة مكروب هذه الحمى الصفراء . يؤيد هذا أن فريدريك لفلار ، الرجل القديم ذا الشوارب الكبيرة ، كشف عن وجود مثل هذه الاحياء فى داء « الفم والقدم » الذى يصيب العجول . وودّ ريد وكارول أن يكشفا فى الحمى الصفراء عن وجود مثل هذا المكروب الذى خرج عن طوق المجاهر فلم تكتشفه

وكان ريد فى شغل شاغل ، فبعث كارول إلى هبانا يستطلع الأمر ، فلما جاءها غضب أشد الغضب لموت من مات فى تجارب جتراس ، وكان جتراس فى هلع هالع ، ومن ذا الذى يلومه ، فمنع كارولَ أن يستخرج دماً من مرضى الحمى الصفراء . لا ، لا . لا يمكن أن يستخرج دماً أبداً . بل ولن يؤذن لكارول أن يعضهم ببعوضه . وزاد جتراسُ فى سُخفه ففضّل ألا يفحص كارولُ حتى الجثث التى تموت خشيةَ أن يثير هذا ثائرة السكان. فكتب كارول إلى ريد يقول : « . . . فتصور خيبتى فى وسط هذا » ، وزاد فاستنكر مخاوف قوم جُهّال يتسخّفون . على أن هذا لم يورثه الخيبة ، فما مِثْل كارول يخيب

ولسنا ندرى أى حيلة أعمل ، وبأى سحر استنجد حتى جاء بدم وبىء من مريض بالحمى ، ورشّحه فى مرشح خزفىّ دقّت مسامّه حتى لا تنفذ منه المكروبات التى تريها المجاهر ، وأخذ السائل الراشح الذى نفذ من الخزف فحقنه تحت جلد ثلاثة رجال غير حصينين من الحمى — ولا يذكر التاريخ كيف أغراهم بالرضاء . فأصيب اثنان منهم . فصرخ صاحبنا صرخة الفرح : إن الحمى الصفراء مثل مرض « الفم والقدم » ، كلاهما ينشأ عن أحياء بالغة الصغر تستطيع الافلات من مرشح خزفى دقيق المسام

وكتب ريد إلى كارول يقول : « كُفّ عن قتل الناس فقد غلونا فيه » ، ولكن أين الكفّ من كارول ، فلا بد له من الحصول على بعوض وبىء ، وحصل عليه ببعض طرائقه الجريئة الشيطانية ، وانتزع الرحمة من قلبه وقام بأخيرة تجاربه

وقال فى صدد ماجرى : « لقد عضنى البعوض ومرضتُ ، وكنت أنتظر الخاتمة تأتى فى بحر سبعة أيام . ولكنها لم تأت ، فاقتنعتُ كل الاقتناع بأن قوة الاصابة تتوقف على قابلية المصاب أكثر منها على عدد القرصات . ففى التاسع من أكتوبر عام ١٩٠١ جمعتُ كل البعوض الوبىء الذى عندى ، وكانت ثمانٍ أتاها الوباء قبل ذلك بثمانية عشر يوماً ، وسلّطتُها عامداً على رجل غير حصين ، فكانت الاصابة التى جاءته إصابة معتدلة » . وختم مقاله ختام الفاخر المنتصر . ولكن ماذا كان الحال لو أن هذا المريض مات ، والله يعلم أن احتمال هذا كان كبيراً ؟

هذه قصة هذه العصابة العجيبة ، غريبةٌ ما وَسِمتْ الغرابة . وإنى لأعود بالذكر إلى الذى كان من هذا الباحث كارول ، وأتصوره وقد عَرَتْ من الشعر رأسه ، واحتجبت عيناه وراء منظاره ،

(١) الحنوط كل طيب يخلط لأجسام الموتى وأكفانهم . والحنوطى نسبة إليه وهى لا شك أصل كلمة حنوتى العامية المصرية (المترجم)

ثم أذكر أنه كان حطّاباً قبل أن يكون بحّاثاً ، ثم أذكر ما كان من جرأته الخارقة وقلة مبالاته بالعاقبة فى أمر نفسه ، فلا أتمالك أن أرفع قبعتى احتراماً له وإعجاباً به بالرغم من إغرامه الشديد وإلحاحه فى أن يتجسس عن أسرار الطبيعة فى أخطر مخابئها .

إن كارول كان أول رجل أصيب فى هذا السبيل ، وهو الذى سنّ السنّة الأولى فاقتدى به الجنود الأمريكيون ، وقفّى على أثره الكاتب الملكىّ ، وتشجع به المهاجرون الاسبانيون رقم ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، وحذا على حذوه البقية الباقية من هذا النفر الكريم الذين عرفنا أعمالهم وجهلنا أسماءهم — كلٌّ هذا فى سبيل العلم وسبيل الانسانية ! ولعلك تذكر أنه لما أصيب وقف قلبه أو كاد فى سبيل العلم وفى سبيل الانسانية . فهذا القلب الذى وقف أو كاد فى عام ١٩٠٠ ، ثم تشبث بعد ذلك بالحياة ، عاد فى عام ١٩٠٧ فوقف وقفة لا حركة من بعدها . . .

— ٧ —

وقبل ذلك بخمسة أعوام ، أى فى عام ١٩٠٢ ، مات ريدوهو فى عنفوان شبابه . وكان متعباً أشد التعب برغم صباه . مات وهتاف الأمم له يزداد اصطخابا . وهل تدرى بأى علة مات ؟ بالزائدة الدودية . ومات فقيراً . تمتم لصديقه كين Kean وهو على سرير العمليات قبيل أن يهبط المخروط بالأثير على وجهه : « انى لم أترك لزوجتى ولا لبنتى من متاع الدنيا الا القليل . . . القليل . . القليل » ، وأسكت الأثير لسانه ، وهبط به الى الأخير من أحلامه

لنا الفخار فى أمتنا وفى مجلس أمتنا(١) ، فانهم منحوا مدام إملى لورانس ريد ، زوجة الرجل الذى اقتصد للعالم ملايين الدولارات ، دَعْ ذكر الأنفس ، منحوها منحة طيبة ، خمسمائة وألف دولار معاشاً سنويا ، ومنحوا مثلها لأرملة لازار ، ومثلها لأرملة كارول ، ولا شك أن هذا كانت فيه الكفاية لهن ، بدليل أن لجنة من شيوخ المجلس قالت فى غرابة وإبهام : « إن الأرامل لا يزال باب الرزق فى وجوههن مفتوحا »

ولكن ماالذى جرى لكيسنجر ، جندىّ أهيو ، الذى غاص فى التجربة وصمد فيها صمودا فى سبيل العلم والانسانية وحدهما ؟ إن الحمى الصفراء لم تقتله . وإنه رفض ان يأخذ أجرا عن آلامه ومخاطره . ولكنهم أخيرا وبعد الجهد أغروه بقبول خمس عشرة مائة دولار وساعة من ذهب ، أهديت إليه فى حفل جنود معسكر كولومبيا وضباطه . إنه لم يمت بالحمى ، ولكن خرج سمّ الحمى من جسده ليدخل فيه ما هو شر منه : شللٌ زحف فى جثمانه بطيئا . واليوم هو مُقعَد يَسُدّ الزمن مصابرةً على عقارب ساعته ، وهى من ذهب ! وساعده الحظ أخيرا فجاءته زوجة طيبة تموله من غسل الثياب للناس

وماذا جرى للقوم الآخرين ؟ إن الوقت يضيق بى عن تناولهم . وفوق هذا فأنا لا أدرى ماذا جرى لهم . لقد لقى كل واحد من هذا النفر قسمةً مختلفة خصته بها المقادير . أى والله لقد كانوا زمرة من أغرب الزمر ، قامت فى تلك السنوات العشر بأعجب ما قام به صُياد المكروب ، وتوّجتْ هذه الصيادةَ بأفخرها وأفخمها ، وعملت بيد واحدة وقلب واحد فى بحث وباء الحمى الصفراء حتى لم يبق من سمّه وأنا أكتب هذا ما يُغطّى رأس دبوس

قال دافيد بروس David Bruce وهو محارب الموت القدير : « ليس بمستطاع فى الوقت الحاضر أن نتخذ من أجسام الناس أداة للتجريب » . فاليوم ماذا يقول بعد الذى كان !

أحمد زكى

(١) المجلس النيابى للولايات المتحدة . ويخيل إلى أن الكلام القادم به طعم للسخرية دافعت أن أتذوقه فلم أفلح (المترجم)

٨ ـ هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألماني فردريك نيتشه
ترجمة الأستاذ فليكس فارس

الحرب والمحاربون

لا نريد أن يراعينا خيرة أعدائنا ، كما لا نريد أيضاً أن يراعينا من نحبهم من صميم الفؤاد

دعونى أعلن لكم الحقيقة

إننى أحبكم من صميم الفؤاد ، أيها الرفاق فى المعارك ، فما أنا الآن إلا ، كما كنت فى الأمس ، جندى مثلكم ، فأنا إذن من خيار أعدائكم . دعونى أعلن الحقيقة لكم

إننى عارف ما فى قلوبكم من حقد وحسد ، فأنتم من العظمة بحيث لا يمكنكم أن تتجاهلوا الحقد والحسد ؛ فلتكن عظمتكم رادعة لكم عن الخجل بما فى قلوبكم . واذا امتنع عليكم أن تكونوا أولياء فى معرفة الحق فكونوا على الأقل جنوداً يكافحون من أجل هذه المعرفة ؛ وما المكافحون الا طليعة الأولياء

لقد كثر عدد الجنود فليتنى أرى مثل هذا العدد من المحاربين ، وعسى ألا تكون سرائرهم على طراز واحد كالألبسة التى يرتدونها

لتكن أنظاركم منطلقة تفتش على عدو لكم ، وقد لاحت فى لماتها بوادر البغضاء . عليكم أن تجدوا العدو لتصلوا معه حرباً تناضلون فيها من أجل أفكاركم ، حتى اذا سقطت هذه الأفكار فى المعترك ، ينتصب اخلاصكم هاتفا بالظفر

أحبوا السلام كوسيلة لتجديد الحروب ، وخير السلام ما قصرت مدته . إننى لا أشير عليكم بالعمل ، بل أشير بالكفاح ؛ لا أشير عليكم بالسلم ، بل بالظفر . فليكن عملكم كفاحاً وليكن سلمكم ظفراً

لا اطمئنان فى الراحة إذا لم تكن السهام مسددة على أقواسها . وما راحة الأعزل إلا مدعاة للثرثرة والجدال . فليكن سلمكم ظفراً . . .

تقولون إن الغاية المثلى تبرر الحرب ؛ أما أنا فأقول لكم إن الحرب المثلى تبرر كل غاية ، فقد أتت الحروب والأقدام بعظائم لم تأت بمثلها محبة الناس ؛ وما أنقذ الضحايا حتى الآن إلا إقدامكم لا إشفاقكم

إنكم تتساءلون عن الخير ، وما الخير إلا الاتصاف بالشجاعة ، فدعوا صغيرات الأطفال يقلن : (إن الخير فى اللطف والجمال)

يقولون أن لا قلوب لكم ، ذلك لأن قلوبكم تنبض بالاخلاص ، وأنا أحب تواضعكم فى إخلاصكم . إنكم تستحون لأن أمواجكم تندفع فى مدها ، وسواكم يخجل من تراجعها فى جزرها

إن قبحكم مريع ، فتدثروا به أيها الأخوة ، لأن فى دثار القبح ما ليس فى سواه من الروعة والبهاء

ان النفس لتقف صاخبة عند ما تمتلى ، والقسوة كامنة فى اعتلائكم ، فما خفيت حالكم عنى . ففى ميدان القسوة يلتقى الشديد العزم بمنهوك القوى فلا يمكنهما أن يتفاها — إننى أعرف من أنتم

إذا ظفرتم بعدو فصبوا عليه بغضكم ؛ وحاذروا أن تصبوا عليه احتقاركم ، فما عدوكم الا مدعاة مباهاتكم ، فاذا عملتم بوصيتى يصبح انتصاره انتصاراً لكم أيضاً

إن الثورة مفخرة للعبيد ، فليكن افتخاركم أنتم قائماً على طاعتكم . وليكن أمر الآمر فيكم جزءا من هذه الطاعة نفسها .

إن المحارب الصادق يفضل ما يجب عليه على ما يريده . فعليكم أن توجهوا ما تؤمرون به الى هدف رغباتكم . وليكن حبكم للحياة تعبيراً عن أسمى أمانيكم ؛ ولتكن هذه الأمانى عبارة عن أرفع فكرة فى الحياة . وما أرفع فكرة لكم ، وأنا أستميحكم إبداءها لكم كأمر ، إلا هذه القاعدة : (ما الانسان إلا كائن يجب أن نتفوق عليه)

على هذا الوجه تمر حياتكم بالطاعة والجهاد ، فما يهمكم أطالت الحياة أم قصرت . فليس من محارب يطالب أن يُعامل بالمراعاة

لقد قلت لكم الحق بلا محاباة لأننى أحبكم من صميم الفؤاد ، أيها الأخوة فى السلاح

هكذا تكلم زارا . . .

الصنم الجديد

لم يزل فى بعض الأماكن من الأرض شعوب وجامعات ، أما نحن فليس عندنا سوى حكومات ، وماأدراكم ما هى الحكومات

أعيرونى أسماعكم لأخاطبكم عن موت الشعوب: — ليست الحكومة إلا أبرد مسخ بين المسوخ الباردة، فهى تكذب بكل رصانة إذ تقول: «أنا الحكومة، أنا الشعب»

إياكم وتصديق ما تقول؛ فما كون الشعوب إلا المبدعون الذين نشروا الأيمان والمحبة؛ فأتوا بأجل خدمة للحياة. وما الناصبون الأشراك للجموع الغفيرة إلا من يهدمون كيانها ليشيدوا الحكومات على أنقاضها، ويعلقوا نصلاً قاطعاً فوق رأس الشعب، وينصبوا مئات الشهوات أمام عينه

إن الشعب، حيث بقى له مرتع على الأرض، لا يفهم ما هى الحكومة، بل هو ينفر منها كما ينفر من العين الساحرة، ويراها شذوذاً هادماً للشرائع والتقاليد. وإليكم هذا الدليل: إن لكل شعب بيانه عن الخير والشر؛ وجيرة هذا الشعب لا تفهم هذا البيان الذى أوجده لنفسه محدداً به شرائعه وتقاليده، على حين أن الحكومة تكذب فى جميع تعابيرها عن الخير والشر، فليس ما تقوله إلا كذباً، وليس ما تملكه إلا نتاج سرقتها واختلاسها

إن كل ما للحكومة مزيف، فهى تنهش بأسنان مستعارة، وأحشاؤها مختلقة اختلاقاً؛ وما شعارها إلا «البيان المبهم المشوش عن الخير والشر» فهى تتجه به نحو الفناء، وتقوم بنشره بدعوة صريحة للمنذرين بالموت

إن عدد من يدخلون الدنيا قد تجاوز الحد، وما أوجدت الحكومة إلا لخدمة الفضوليين الدخلاء على الحياة. انظروا إلى هذه الحكومة كيف تجتذب إليها الدخلاء فتضمهم إلى صدرها وتشبعهم عناقاً وتقبيلاً. اسمعوها تهدر قائلة:

— ليس أعظم منى على وجه الغبراء، فأنا يد الألوهية المنظمة

وعندما تهتف هذا الهتاف، تتهاوى الركاب جاثية، وبين الراكعين كثير من غير طوال الآذان وقصار النظر

إن هذه الأكاذيب تجد مصدقين لها وا أسفاه حتى بينكم أنتم، يا من تجول فيكم النفوس الأبية، لأن الحكومة تعرف أن تدغدغ قلوبكم الطامحة بالمكارم، الطامحة إلى الجود، إنها لتخترق سرائركم، أنتم أيضاً، يا من تغلبتم على الألوهية القديمة، فهى تعرف أنكم تعبتم من الكفاح فتستخدم ملالكم لعبادة الصنم الجديد

إنه لصنم يتمنى أن يحيط به الأبطال وفضلاء الرجال؛ إنه لمسخ بارد يريد أن يدفأ بشمس الضمائر المشمة المشرقة

إنه ليمنحكم كل شىء إذا أنتم سجدتم له. فهذا الصنم الجديد يشترى لمعان فضائلكم وما فى لفتاتكم من عزة وكرامة. إنه فى حاجة إليكم ليجتذب إليه المدد الفائض من الدخلاء على الحياة، فهنالك البرج الجهنمى، وهنالك جياد الموت تقرقع بعددها حاملة شارات المراتب والامجاد؛ أجل ذلك هو اختراع الموت أتى به للجموع ليحصدها حصداً وهو يباهى بأنه هو الحياة، والمنذرون بالموت يرون بفعلته خير خدمة لمبادئهم

حيث يكرع الجميع السموم ويضيع كل إنسان نفسه صالحاً كان أو طالحاً، فهنالك تقوم الحكومة لأنها تسود كل مكان يوصف فيه الانتحار البطىء بالحياة

انظروا إلى هؤلاء الدخلاء. إنهم يختلسون ثمرة جهود المخترعين وكنوز الحكماء ويدعون هذا الاختلاس تمدناً؛ غير أن كل شىء يصبح أدواء ومصائب تحت سلطانهم. أنظروا إلى هؤلاء الدخلاء وليس فيهم إلا الأعلاء ينفثون غسلين مرائرهم، وينتحلون صفة الصحافيين . . . إنهم يتناهشون ويلتهم بعضهم البعض الآخر وليس لهم القوة على هضم ما يلتهمون

انظروا إلى هؤلاء الدخلاء، إنهم يحشدون الأموال، وكلما ازدادت ذخائرهم زاد فقرهم، فانهم يطمحون إلى الاستيلاء على القوة فيبدأون بالقبض على محركها الأول: على الأموال الطائلة، وما هم إلا الدخلاء العاجزون

أنظروا إليهم! أنظروا إلى هؤلاء القرود يتسلق بعضهم البعض الآخر فيتدافعون متمرغين فى الأوحال على الشفير. إن كلا منهم يطمح إلى التقرب من العرش، وقد عراهم جنون التوصل إليه، فكأن لا سعادة إلا على مقربة منه، وقد يرتفع رشاش الأوحال إلى العرش كما ينزلق العرش نفسه إلى الأوحال[1]

إننى أراهم وقد جن جنونهم، قروداً لا تسكن لهم حركة وهم يتسلقون قاعدة صنمهم البارد وقد انبعثت منه ومنهم أكره الروائح وأخبثها

(يتبع) فليكس فارس

(١) لا يغرب عن القارئ الكريم أن نيتشه يعالج فى هذا الفصل القضية الكبرى فى مدنية الغرب، وقد نشأت من استخدام أصحاب الأموال لنتاج عبقرية المخترعين وجهود المكتشفين فى سبيل حشد الثروات الطائلة والتسلط بها على الحكومات، وقد أصبحت مدنية الغرب من هذا الوضع الشاذ فى حلقة مفرغة تبتدئ حيث تنتهى بين ملوك الحكومات وملوك المال، وليس، والحمد لله فى الشرق أمثال لهؤلاء الملوك

١٠ - تاريخ العرب الأدبى

للأستاذ رينولد نيكلسون

ترجمة حسن محمد حبشى

الفصل الثانى

وخلف النعمان ولده المنذر وكان أميراً عاقلاً شجاعاً . ويستدل على سطوة اللخميين إذ ذاك من الحادثة التى حدثت عقب موت يزدجرد الأول ، ذلك أن المنذر تدخل فى النزاع القائم حول انتخاب خليفته ، وأيد اختيار بهرام جور(١) الذى عارض توليته رجال الدين فى فارس . وفى الحرب التى اندلع لهيبها بعد قليل بين الفرس والروم برهن المنذر على أنه تابع مخلص ، ولكن الروم كبّدوه خسائر فادحة عام ٤٢١ م . وفى أوائل القرن السادس الميلادى اعتلى العرش أمير يسمى المنذر الثالث الذى دعاه العرب ابن ماء السماء(٢) ، وطالت مدّة حكمه وازدهرت ، وإن كانت قد تلبدت سماؤها بغيوم حادثة يستحيل فهمها دون الرجوع إلى التاريخ العام لهذه الفترة ؛ ذلك أنه حوالى ٤٨٠ م امتد نفوذ قبيلة كندة التى يظهر أن أمراءها كانوا خاضعين لتبابعة اليمن خضوع اللخميين لملوك فارس ، وشمل نفوذها جزءاً كبيراً من وسط بلاد العرب وشمالها . وكان اليد العاملة فى بسط هذا النفوذ حجر (آكل المرار) أحد أجداد امرىء القيس ، ولكن ما لبث أن تفكك هذا عند ما مات حجر ، ولكن عاد الشمل فالتم مرّة ثانية لمدة وجيزة حوالى سنة ٥٠٠ م على يد حفيده الحارث بن عمرو ، وصار منافساً خطيراً لامارتى الحيرة وغسان ؛ على حين كانت تعاليم مزدك الاشتراكية قد اتسع نطاق دعوتها وتغلغلت بين العامة فى فارس حتى انتهى الأمر بأن اعتنقها الملك قباذ(٣) نفسه . ومن المؤكد أنه قد حدث بين عامى ٥٠٥ ، ٥٢٩ م أن اجتاح الحارث بن عمرو الكندى العراق وأقصى المنذر عن مملكته . وليس من البعيد أن يكون سقوط الأخير — كما يؤكد كثير من المؤرخين — راجعاً إلى عدائه للتعاليم المزدكية التى أثارت سخط مولاه . وعلى كل حال — وأيّاً كانت الأسباب — فان الحارث قد أقصى المنذرَ وقتاما ؛ وبالرغم من أنه قد عاد إلى عرشه بعد فترة قصيرة قبل تولية أنوشروان الذى قتل كثيرين من أتباع مزدك (٥٢٨ م) فان النسيان لم يسحب ذيوله على ما لحقه من إهانة وقسوة(١) ، وإن حياة امرئ القيس وقصائده لتحمل طابع الكراهية الموروثة التى تأصلت جذورها بين لخم وكندة . ولقد أدّت أعمال المنذر ضد الروم إلى نشاط كبير ، فقد دخل سورية ووصل الى إنطاكية ، ورأى جستنيان نفسه مضطراً لأن يكل أمر الدفاع والذب عن هذه الأقاليم الى الحارث بن جبلة الغسّانى (الحارث الأعرج) الذى وجد فيه المنذر قوّة تفوق قوّته . ومنذ ذلك الحين أخذ كلٌّ من ملوك الحيرة وغسان فى الاغارة على أقاليم الآخر وتخريبه ؛ وفى إحدى هذه الغزوات أسر المنذرُ ابنَ الحارث ، وسرعان ما ضحّى به لأفروديت الآلهة العربية العزى(٢) . ولما استرد الأقاليم ثانية سنة ٥٥٤ م فوجئ فى معمعان القتال وذبح فى موقعة تدعى « يوم حليمة » . ومجمل القول أن اللخميين كانوا وثنيين ليس لهم حظ من الرقى والحضارة ، تلك التى يستحقها تماماً المنذر الثالث . وقد روى الأغانى أنه كان له نديمان من بنى أسد هما خالد بن المضلّل وعمرو بن مسعود ، فأغضباه فى بعض المنطق ، فأمر بحفر حفرتين وأن يجعلا فى تابوتين ويدفنا فيهما ففعلوا ذلك بهما ، حتى إذا أصبح سأل عنهما فأخبر بهلا كهما فندم على ذلك واغتم ؛ ثم ركب المنذر حتى نظر إليهما فأمر ببناء الغَرِيَّين عليهما فبنيا وجعل لنفسه يومين فى السنة يجلس فيهما عندهما يسمى أحدهما يوم نعيم يعطى فيه أول طالع عليه مائة من الابل سوداً ، والآخر يوم بؤس يعطى فيه أول طالع عليه رأس ظربان أسود ، ثم يأمر به فيذبح ويطلى بدمه

(١) شكى عظماء من أن بهرام جور لم يتأدب تأدب العجم ، وإنما أدبه أدب العرب وخلقه كخلقهم لنشأته بين أظهرهم ، واجتمعت كلمتهم وكلمة العامة على صرف الملك عن بهرام (الطبرى ج ١ ص ٨٥٨ س ٧ — ٩)

(٢) وقيل إن ابن ماء السماء كنية له عن أمه التى كانت تدعى مارية أو ماوية

(٣) للاطلاع على مزدك وتعاليمه يمكن القارئ مراجعة ما ترجمه نلدكة عن الطبرى ١٤٠ ، ١٤٤ ، ١٥٤ ، ٤٥٥ — ٤٦٧ وما كتبه الأستاذ براون فى كتابه Lit Hist of Persia ج ١ ص ١٦٨ — ١٧٢

(١) ذبح المنذر أربعين أو خمسين فرداً من عائلة كندة المالكة الذين وقعوا أسرى فى يده ، ولقد كان الحارث أحد من قتلهم المنذر بيده عام ٥٢٩ م ومنذ ذلك الحين أخذ شأن كندة فى الضعف ، وأخذت ترتد بالتدريج إلى مواطنها الأولى فى حضرموت

(٢) وفى مرة أخرى ضحى بأربعمائة راهبة مسيحية لهذه المعبودة

الغريان ، ويقال إن عبيد بن الأبرص كان أول من أشرف عليه يوم بؤسه فقتله(١) ؛ وظل على هذا الحال حتى مرّ به رجل من طي يقال له حنظلة ، فلما رأى نفسه مقتولاً قال له : « أجلنى سنة أرجع فيها إلى أهلى ، ثم أصير إليك فأنفذ فى حكمك » فقال : « من يكفلك حتى تعود ؟ » فنظر فى وجوه جلسائه فعرف فيهم شريك(٢) بن عمرو الذي قام وقال للملك : « أبيت اللعن يدى بيده ودمى بدمه إن لم يعد إلى أجله(٣) » فلما كان العام القابل جلس فى مجلسه ينتظر حنظلة أن يأتيه فأبطأ عليه ، فأمر الملك بشريك ليقتله ، فلم يشعر إلا براكب قد طلع عليهم فتأملوه فاذا هو حنظلة متكفنا متحنطا معه نادبته تندبه ، فلما رآه المنـذر عجب من وفائهما وكرمهما فأطلقهما وأبطل تلك السنة(٤)

***

وقد خلفه على العرش ابنه عمرو الذي يعرفه شعراء العربية المعاصرون والمؤرخون المحدثون باسم عمرو بن هند ؛ وفى عهده أصبحت الحيرة مركزاً أدبياً زاهراً ، وقد وفد على بابه كثيرون من شـعراء عصره ، وسترى فى الفصل التالى علاقاته مع طرفة وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة . ولقد كان عمرو هذا رجلاً شرس الطباع مستبداً طاغية ضاق العرب به ذرعا كما نرى ذلك من قول الدهان العجلى(٥) :

أبا القلبُ أن يهوى السدير وأهله
وإن قيل عيشٌ بالسدير غريرُ
فما أنذروا الحيّ الذى نزلوا به
وإنى لمِنَ لم يأته لنذيرُ
به البقّ والحمّى وأُسْد خفيّة
وعمرو بن هند يعتدى ويجور

ولقى عمرو مصرعه على يد كبير التغالبة عمرو بن كلثوم ، ثأرا لكرامة أمه ليلى التى خدشت عنده

ونكتفى بالاشارة إلى اسمى قابوس والمنذر الرابع ابنى هند اللذين ولى كل منهما العرش فترة قصيرة ، ونكون بذلك قد وصلنا إلى آخر ملك لخمى للحيرة ألا وهو النعمان الثالث ابن

(١) راجع قصة هلاكه فى الأغانى ج ١٩ ص ٨٦ — ٨٧
(٢) وقد ذكر له الأغانى (ج ١٩ ص٨٧ س ١٨) شعراً مطلعه :
يا شريك بن عمرو ما من الموت محاله
(٣) الأغانى ج ١٩ ص ٨٦ طبعة بولاق
(٤) كانت هنـد أميرة كندية ، وهى ابنة الحارث بن عمرو الذى أسره المنذر فى إحدى غاراته ، وكانت نصرانية وأقامت ديراً فى الحيرة « راجع ترجمة نلدكه للطبرى ص ١٧٢ هامش رقم ١ »
(٥) الأغانى ج ٢١ ص ٩٤ س ١٦ — ١٨

المنذر الرابع ويكنى بأبى قابوس وقد حكم من سـنة ٥٨٥ إلى ٦٠٧ م ، كما نشأ فى أحضان أسرة مسيحية شريفـة فى الحيرة قامت بتربيته وتعليمه ، وكان كبيرها زيد بن حماد أبا الشاعر عدى ابن زيد ، وعدى هذا ذو شخصية جذابة كما كانت وقائعه قوية الصلة بحوادث النعمان ؛ وكان كل من جدّه وأبيه ذا ثقافة ليست بالقليلة ، وشغلا مراكز سامية أيام المنذر الثالث وخلفائه ، وقد استطاع زيد بواسطة دهقان يدعى « فاروخ ماهان » من اجتذاب عطف كسرى أنوشروان (١) بأن صار كاتب ديوانه ، وذلك منصب لا يرقاه إلا أبناء الأشراف . وحينما اشـتد ساعد عدى أرسله أبوه ليتلقى المعارف مع ابن الدهقان فأجاد الفارسية كتابة وقراءة ، كما أتقن العربيـة اتقاناً تاماً ، وقرض الشعر ، وتعلم ركوب الخيـل ، ولعب الـكرة ، كما أن جماله الشخصى وذكاءه وذلاقة لسانه وحضور بديهته كل أولئك حبَّبهُ إلى أنوشروان فقرّبه إليه واتخذه كاتباً له ومترجماً فى ديوانه ؛ ولم يكن قد كتب بالعربية قط من قبل فى الديوان الملكى ، وحباه الملك عطفه ، وبعث به إلى القسطنطينية فى سفارة خاصة حيث استقبل أجل استقبال ؛ وعند أوبته أوحى القيصر(٢) — جريا على سنة متبعة — إلى جميع الموظفين القائمين بحراسة الطريق عدّ الخيل فى محطات البريد بما يلزمها حتى يرى المبعوث الفارس عظمة واتساع الامبراطورية البيزنطية

(يتبع) حسن حبشى

(١) تولى زيد الحيرة نيابة عن الملك بعد موت قابوس ومهد الطريق للمنـذر الرابع الذى أسرف فى الطغيان حتى كرهه الشعب ومقته « راجع ترجمة نلدكه للطبرى ص ٣٤٦ هامش رقم ١ »
(٢) يطلق العرب على الامبراطور البيزنطى لقب قيصر ، والملك الفارسى لقب كسرى

من ديوان البغضاء :

ألســت التى . . . ؟؟

للأستاذ محمود محمد شاكر

بَلَى ! كنتِ فى قلبى سِرَاجاً يضيئه
فيفترُّ عن أنوارِه كلُّ جانبِ
وكنتِ حياةً للحياةِ تمدُّها بأفراحها فى عابسات المصائب
وكنت لىَ البرَّ الوديعَ إذا غلت بأمواجها وادَّافعت بالمناكب
وكنتِ نسيماً واللظى ينشفُ اللظى
ويترُكُ ظِلَ الدَّوْحِ ظلَّ اللواهب
وكنتِ ملاذى والشؤون كأنَّها من الدمع ينبوعٌ يجيش بغارب
وكنتِ إذا ما العينُ مدَّت هيامها إليكِ تلقَّتها أحنُّ الترائب
وكنتِ كأنفاسِ الرياضِ ، عبيرُها
على الفاقِدِ المحزون فَرْحة آيب
بَلَى ! كنتِ . . . كنت السحرَ تبدو صدورُه
من الخير تخفى منه شرَّ العواقب
أرى الحيَّة الرقطاء أجملَ منظراً وألينَ مسًّا من ثدىِّ الكواعب
إذا ما تراءتها العيونُ بريئةً من الخوف خالتها دُعابة لاعب
تدانَى إلى اللاهى دنُوَّ مُقاربٍ فيدنو ويُدْنِى كفَّه كالمُداعب
ألا ارْفعْ يداً ، واذهب بنفسك رهبةً
فمنْ حُسْنها نابٌ شـديد المعاطب
بَلَى ! كنتِ . . . إذْ عينى عليها غشاوةٌ
وإذْ أَتردَّى من سوادِ الغياهب
وأُخرى على عينِ البصيرة خيَّلت
لنفسى هداها بالأمانى الكواذب
أُرى من تكاذيب الخيالِ كأنَّنى إلى جنة الفردوس أحدو ركائبى
أُغنى لآمالى لأبلغ غايتى وأُدرك لذّاتى ، وأجنى مطالبى
وما ذاكِ إلا راحة القلب بالهوى وبالوُدِّ فى عيشٍ شديد المتاعب
وأنْ أَرِدَ الماء الزلالَ . . . ولم أرِدْ
وقد عشت دهراً — غيرَ رَنْقِ المشارب

ألا فاعلمى أنى ظَمِئت ، وأنَّنى تجنبت جُهدى الماءَ جمَّ الشوائب
فجئتُكِ ظمآناً يموتُ بغُلَّةٍ
فأغريتِ بى الغُيلاتِ من كل جانب
لقد كنتُ خِلواً أنتحى حيث أشتهى
وأرضَى وآبى مُقدِماً غير هائبِ
تسهِّلُ لى الصعبَ الأبىَّ عزيمتى ويكفُلُ لى صدقُ قضاءِ مآربى
وأرمى بنفسى فى المهالك باسماً لأنفذَ منها باسماً غيرَ خائب
فواحزنا . . . ! أضللت عزمى وهمّتى
وأيتمت أفكارى وضيعت واجبى
تخشَّعت تحت الحُبِّ والوجد والجوى
وطولِ اضطرابى فى الهموم الغوالب
أذلَّ شبابى الحبُّ حتى رأيتنى أمرُّ بأترابى مرور المُجانِبِ
وأحسدُهم مما لقيت . . . وإنَّنى لأخشى عليهم محنتى وتجاربى
ألا ويحها ! ! كم بت أرقبُ طيفها !
وكم سهرت عينى نجىَّ الكواكب !
وكم طُفت بالبيداء أطلب خلوة !
وأُرسل طرْفى فى ضلال المذاهب !
أُمثِّلها حتى أكادَ أمسها ! وأُلقى إليها ما تضمُّ جوانبى !
وأشتاقُها والبحر بينى وبينها وبيدٌ تَعاوَت بالرِّياح الغواضب!
فلما التقينا ضمَّنا الشوق والهوى
وكان حديث الوصل صمت الرغائب
ولكن . . . رمت بينى وبينك بعدهُ
ضريبة أُنثى . . . وهى شرُّ الضرائب
فأطلقت فى إثرى الضوارى مُجدة تعان على أنيابها بالمخالب
تمزِّقنى ألحاظها وعيونُها كأنى أُرمى بالسهام الصوائب
يفزِّعُنى ظِلِّى إذا ما لمحتُه وقد غالنى رُعبى وسُدَّت مهاربى
فما كدت أنجو بالحشاشة بعدما تلقيت من حُبيك شرَّ النواكب
ألا لا تقولى كيف كنت !! . . فإننى
أرى كلَّ أُنثى شرُّها غيرُ غائب

[البقيــة فى ذيل الصفحة التالية]

الفنون

فرانسسكو جـــويا

GOYA

للدكتور أحمد موسى

يعد جويا من أغرب شخصيات القرن التاسع عشر وأبعدها أثراً في الفن . ظل يصور حتى تجاوز الثمانين من عمره ، وقضى حياة حافلة بمختلف الحوادث والعبر ، وبوفاته انتهى دور من أهم أدوار الفن الأسباني

وولد فرانسسكو جويا في ٣٠ مارس سنة ١٧٤٦ في فونديتورس إحدى القرى الصغيرة في مديرية أراجون لوالدين فقيرين اشتغلا بالفلاحة في قطعة صغيرة من الأرض كانت مصدر حياتهم ؛ فكانت طفولته مليئة بالعمل والتعب والملل .

وعندما بلغ الثانية عشرة من عمره رسم شكلا تخطيطياً لخنزير على حائط مسكنه الريفي ، وشاهد أحد الرهبان هذا الرسم مصادفة فوجد فيه ما يدل على استعداد راسمه ؛ فتقدم إلى والده ناصحاً بأن يذهب بابنه إلى فنان يقيم في سرقوسه وهي أقرب البلدان إلى قريتهم

كان أول معلميه جوزى لوزان مارتنز ، فعرف منه كيفية تحضير الألوان وشد قماش اللوحات في الأطار ، وما إلى ذلك من وسائل العمل نظير خدمته لمعلمه

وفي مدة وجيزة استطاع جويا أن يفهم الأسرار العملية لمهنته التي ولد لها ، وأمكنه أن يصور بعض تفاصيل مهمة على لوحات معلمه ، ولم تنقض ثلاث سنوات حتى رخّص له مارتنز برسم لوحات بأجمعها

جمع جويا بين ظاهرة العبقرية الفنية وبين قوة العضلات ؛ فكان يمضي أوقات فراغه في الرياضة البدنية والمصارعة والجرى وحمل الأثقال

وكان محبوبا من بنات البلدة اللواتي كن يحضرن لمشاهدة مصارعته مع أمثاله الذين تغلب عليهم دائماً . وكان كثير التردد على القهوات والحانات فكان روادها يخشون بأسه .

بدأ جويا حياته الفنية بتصوير العذراء ، فأخرجها إخراجا أنيقاً في ثوب رقيق وقوام رشيق . ومع هذا السمو كنت تراه أحيانا يغني أغاني شعبية عامية لا تنسجم مطلقاً مع مصوراته في ذلك الحين ، كما كان عصبي المزاج سريع الغضب سريع البطش

عاد في آخر الليل مرة مع أصدقاء له إلى المدينة فصادفه في حارة قذرة من حاراتها نفر من قطاع الطرق الذين أرادوا به وبأصدقائه شراً ، ولكن جويا بمساعدة رفاقه استطاع مطاردتهم وقتل ثلاثة منهم

ولم يترك الفرصة تسنح للقبض عليه ففر هارباً إلى مدريد .

ظهر في العاصمة كفنان بسيط ، ولم ير سبيلاً إلى العيش لأنه

تروميَن مني الودَّ بُقيا عَلَى الذي
مضى..!! خاب فألي أن أرى غير ثائب

تروميِن منّي الودّ ! .. تلك عجيبة
وأسعى لذبحي ! تلك أمُّ العجائب

تشهَّيت لحماً..! فأت ماتشتهينه — فلم يبق من لحمي طعامٌ لساغب
تمليّت هذا البغض حتى رأيتني — أربب حيَّاتي وأغذو عقاربي
فإن يك بُغضي كلّ ذنب جنيته — إليك..! فإني لست منه بتائب

وكيف ! . . وقد أنهكتني وعرقتني
وقدت عَلَى قلبي جيوش النوائب !

ذريني . . . ولكن الحياة مليئة
بكن . . . فما في الأرض منجى لهارب

محمود محمد شاكر

لم يكن يعرف أحداً فيها . كان دائب البحث عن أى عمل ولكنه كان يعود مساء كل يوم كسير القلب إلى الملجأ الذى أقام فيه

وفى صباح يوم وجد المسكين فى إحدى الأزقة الضيقة وقد اعتدى عليه بالسكاكين فأخذه أولئك الذين كان يقيم معهم وعنوا به حتى شفى من جراحه



علم البوليس بأنه من العاطلين المدمنين على شرب الخمر فطارده إلى خارج العاصمة ، فذهب إلى حلبة مصارعة الثيران واستطاع أن يجد عملاً حقيراً نظير أجر بسيط ادخر معظمه حتى تمكن به من الوصول إلى إحدى موانى أسبانيا الجنوبية حيث أبحر إلى شاطىء إيطاليا الغربى . وصل إلى روما وهناك أمكنه العمل عند فنان شعبى راجت حاله

وعند هذا الفنان تعرف إلى أناس لا يميلون بطبعهم إلى العلم ولا إلى المتعلمين وإنما هم من أولئك الذين تجتذبهم حياة الشوارع وما فيها من وسائل لقتل الوقت

ومال بطبيعته وبحسب استعداده وبعامل البيئة التى عاش فيها إلى تصوير مناظر الأزقة والحارات والقهوات على نقيض الفنانين الآخرين الذين كانوا كثيراً ما يتحاشون إظهار هـذه المواقف على لوحاتهم

وهذه نزعة لم يسبق أحد إليها خصوصاً وأنه أكثر من تصوير الوجوه الثائرة والمناظر الشاذة المتصلة بحياة الجمهور والغوغاء مباشرة ، حتى لترى هذه المسحة على معظم لوحاته التى تعد بحق خير مسجل لشخصية مصور من أنبغ فنانى القرن التاسع عشر

صعد يوماً إلى قبة كنيسة بطرس ليحفر الأحرف الأولى من إسمه ، ولا تزال محفورة إلى اليوم . وهكذا كانت إقامته فى روما غريبة الأطوار . وقد تعرف فيها بسفير روسيا الذى طاب إليه السفر إلى بطرسبرج ليكون مصوراً للقصر . وفى أثناء المفاوضة فى هذا الشأن قُبض عليه بتهمة تحريض احدى الراهبات على عمل غير شريف . ولولا اتصاله الوثيق بسفير روسيا لما استطاع الأفلات من يد العدالة

كان جويا تعساً فى غربته ، وكان دائم الحنين إلى بلدته ، ورأى فى إقامته الطويلة بروما تكفيراً كافياً لسابق جرائمه ، فعاد إلى مدريد سنة ١٧٧٥ وتزوج من يوزيفينا بايو شقيقة الفنان فرانسسكو بايو الذى كان مصوراً فى قصر مدريد والذى بوساطته استطاع جويا أن يقوم بعمل تصميمات لمناظر وزخارف الأقمشة التى كانت تُغطى بها حوائط القصر . وأول تصميم له نُسج على قماش لهذه الغاية سنة ١٧٧٦ ، واستمر حاله هكذا حتى سنة ١٧٩١ ، وتدرج فى التقرب من سادة القصر وتقدم فى فنه تقدماً عظيماً حتى أصبح أبرز فنانى عصره فى أسبانيا ، وعمل لوحات مثلت الحياة على الصورة التى تغلغلت فى نفسه كما صور أكبر الشخصيات

كان جويا فناناً بكل معانى الكلمة ، كما كان بوهيميا فى علاقته الزوجية ، ولم يخل تاريخ حياته من فضائح أهمها اتصاله بأميرة إلبا التى عشقها عشقاً ملك عليه مشاعره فصورها على لوحات تجل عن الحصر فى مواقف مختلفة ، وكان يعيش فى جناح من قصرها . أما هى فكانت تتوجه من حين لآخر إلى زوجته وأولاده وتقدم اليهم العطايا والهدايا



ولم تكن الملكة راضية عن هـذه العلاقة ؛ فعملت ترتيباً

أخرجت به الأميرة من القصر إلى جهة نائية . سافر جويا بصحبة معشوقته فى عربة خاصة كُسرت عجلتها فى الطريق الوعر ، فقام بعمل الاصلاح اللازم كما لو كان حداداً ماهراً ، وأمكن السير بالعربة إلى أقرب قرية لتغيير العجلة . تمرض جويا بعد هذا المجهود للهواء البارد فأصيب بصمم فى احدى أذنيه لازمه حتى آخر حياته

مضت الأعوام وعادت الأميرة إلى مدريد وماتت بعد وصولها . وعاد هو لتصوير مناظر دلت على منتهى الحنق والحقد على النساء ، كما دلت على كثير مما خالج نفسه من البؤس والشقاء

زحف الفرنسيون على مدريد فقابلهم جويا بكل ترحيب وانضم إليهم بقلب مطمئن ، وبعد خروجهم منها وجهت إليه تهمة الانضمام للعدو ؛ إلا أنه تمتع بالعفو لكبر سنه

بدأ الهدوء يدب إلى نفسه ، واستمر يصور لوحاته ، وأكمل مجموعته بالقلم الرصاص حتى بلغ السابعة والسبعين ، ثم رحل إلى وردو عملاً بمشورة طبيبه ، ولم يترك التصوير مع ضعف بصره ، بل كان يستعين بالمجهر . وآخر لوحة له صورها فى سن الحادية والثمانين ، ومات بعدئذ بسنة واحدة سنة ١٨٢٨

هذه هى ترجمة فنان لم يكن له نظير فى مجرى حياته ولا فى قوته الانشائية لمجموع لوحاته التى من أشهرها صورة (البقرة العمياء) تمثل مجموعة من بنات وشبان تتوسطهم بنت مغمضة العينين تبحث عمن يناديها (محفوظة بمدريد) ، وصورة (الغداء فى الغيط) وفيها مثل الطبيعة تمثيلاً رائعاً (محفوظة بلندن) وصورة (النزهة فى الأندلس) وكانت مرسومة خصيصا للنسج (محفوظة بمدريد) وصورة الولد النطاط وهى من أدق الصور التى تدل على منتهى قوة الملاحظة والاخراج : وقفت اربع بنات يحملن ملاءة كبيرة وفوقها صبى واقف على ساق واحدة استعدادا للقفز إلى أعلى عندما يشددن الملاءة

وصورة (المشاجرة فى الملجأ) وهى من أحسن صوره ، تذكرنا بوقت بؤسه عندما كان بعيداً عن بيته يبحث عن عمل ولم يجد إلا ملجأ حقيراً يأوى اليه . والناظر فيها يأخذه العجب عندما يرى أنها تمثل حياة الملاجىء تمثيلا صادقا ؛ صور عليها بعض الحيوانات وبعض الأشجار وعربة قديمة فى ركن من اللوحة ؛ أما بوسطها فقد وقف المتشاجرون موقفا عنيفا لايستطيع غير جويا أن يخرجه فى هذه القوة

وله لوحة خالدة (محفوظة بمدريد) اسماها (الرمى بالرصاص) على يمينها وقف الجنود شاهرين بنادقهم ، وعلى اليسار اصطف المنبوذون مستسلمين للأعدام ، وقد أعطى الصورة ظلا ونورا قويين قلما تراهما لغيره من الفنانين

هذا غير لوحاته العظيمة للشخصيات البارزة فى عصره ، كصورة مارى لويس ، وصورة فرديناند السابع وصورة امير السكاديا وغير ذلك مما يجل عن الحصر

وله لوحات تعد من أغرب ما تركه فنان ، منها صورة (شجرة الربيع) ، وهى تمثل صبية التفوا حول رجل يحمل ساقا طويلة ثبت فى أعلاها شجرة صغيرة وولدان صغيران يتسلقان الساق

أما لوحته (بالقلم الرصاص) الممثلة لحلبة مصارعة الثيران فهذه تعد فى مجموعها من أعظم ما أخرجه ؛ فقدرته على تصوير الثور الثائر والمصارع الماهر لاسبيل إلى وصفها .

أحمد موسى

البريد الأدبي

توحيد الثقافة العربية

بحث أساتذة كلية الآداب بالجامعة المصرية منذ أسابيع فى أمثل الطرق إلى توحيد الثقافة فى البلاد العربية ، ثم رأوا أن يذاكروا فى ذلك إخوانهم القائمين على أمور الثقافة فى لبنان وسورية وفلسطين ، فدعوهم إلى القاهرة فى عطلة عيد الفطر ، فلبى الدعوة بعض أساتذة الجامعة الأمريكية فى بيروت والأستاذ اسحق الحسينى عن فلسطين ، ولم يستطع الأساتذة الدمشقيون الحضور لأسباب طارئة ؛ ثم قضوا فى القاهرة أسبوعا حافلاً بالزيارات والمشاهدات على برنامج معين ؛ واجتمعوا مراراً فى دار « لجنة التأليف والترجمة والنشر » وتناقشوا فى موضوع الدعوة ومناهجها ووسائلها ، فأسفرت المناقشة عن اتفاقهم على هذه الأسس الآتية :

١ — أن تؤلف جمعية لتوحيد الثقافة العربية وتركيزها وتقويتها تتكون من ٢٤ عضواً هم الداعون والمؤسسون

٢ — أن تسعى الجمعية فى أن تضم اليها أعضاء من البلدان العربية الأخرى ، وهى العراق وشرق الأردن وتونس والجزائر ومراكش

٣ — أن يراعى فى اختيار الأعضاء الجدد أن يمثلوا فروع الثقافة المختلفة

٤ — أن تؤلف لجان فنية لدرس النهضات الفكرية والبرامج التعليمية فى البلاد العربية لتوحد غاية التعليم وتقرب مناحى الفكر بقدر ما تسمح بذلك طبيعة الأقليم

٥ — أن تتلافى تعارض الجهود الأدبية ، فلا ينشر مثلاً كتاب قديم فى بلد يكون بلد آخر قد أخذ ينشره على صورة مرضية

٦ — أن تعمل الجمعية لأصدار مجلة خاصة بها يعالج فيها أعضاؤها الأغراض التى أنشئت لها

٧ — أن تعقد الجمعية مؤتمرات ثقافية فى العواصم العربية على التتابع يحضرها الأعضاء ومن يدعون من الأدباء والعلماء فيوثقون الروابط ويرصدون التطور ويوجهون الجهود إلى الغرض المشترك . وسننشر أسماء الأعضاء وتفاصيل المشروع فى فرصة أخرى

لجنة تفسير القرآن تحدد الغرض وتضع قواعد العمل

حددت اللجنة التى ألفت لتفسير القرآن الكريم تمهيداً لترجمة معانيه غرضها بأنه : « وضع تفسير يقصد به إلى فهم معانى القرآن الكريم كما يدل عليه نظمه العربى المبين ، ومعرفة ما فيه من أنواع الهداية ، ويكون فى متناول جمهرة المتعلمين فهمه والاهتداء به إلى معانى القرآن فى سهولة ويسر »

ولتحقيق ذلك تتبع القواعد الآتية فى التفسير :

١ — أن يكون التفسير خالياً ما أمكن من المصطلحات والمباحث العلمية إلا ما استدعاه فهم الآية

٢ — ألا يتعرض فيه للنظريات العلمية فلا يذكر مثلاً التفسير العلمى للرعد والبرق عند آية فيها رعد وبرق ، ولا رأى الفلكيين فى السماء والنجوم عند آية فيها سماء ونجوم ؛ إنما تفسر الآية بما يدل عليه اللفظ العربى ، وتوضح مواضع العبرة والهداية فيها

٣ — إذا مست الحاجة إلى التوسع فى تحقيق بعض المسائل وضعته اللجنة فى حاشية التفسير

٤ — ألا تخضع اللجنة إلا لما تدل عليه الآية الكريمة ، فلا تتقيد بمذهب معين من المذاهب الفقهية ، ولا مذهب معين من المذاهب الكلامية وغيرها ، ولا تتعسف فى تأويل آيات المعجزات وأمور الآخرة ونحو ذلك

٥ — أن يفسر القرآن بقراءة حفص ، ولا يتعرض لتفسير قراءات أخرى إلا عند الحاجة اليها

٦ — أن يجتنب التكلف فى ربط الآيات والسور بعضها ببعض

٧ — أن يذكر من أسباب النزول ما صح بعد البحث، وأعان على فهم الآية

٨ — عند التفسير تذكر الآية كاملة أو الآيات إذا كانت كلها مرتبطة بموضوع واحد ثم تحرر معانى الآية أو الآيات مسلسلة فى عبارة واضحة قوية، ويوضع سبب النزول والربط وما يؤخذ من الآيات فى الموضع المناسب

٩ — ألا يصار الى النسخ إلا عند تعذر الجمع بين الآيات

١٠ — يوضع فى أول كل سورة ما تصل إليه اللجنة من بحثها فى السورة، أمكية هى أم مدنية، وماذا فى السورة المكية من آيات مدنية والعكس

١١ — توضع للتفسير مقدمة فى التعريف بالقرآن وبيان مسلكه فى كل فن من فنونه كالدعوة إلى الله وكالتشريع والقصص والجدل ونحو ذلك، كما يذكر فيها منهج اللجنة فى تفسيرها

طريقة التفسير

١ — تبحث أسباب النزول والتفسير بالمأثور، فتفحص مروياتها وتنقد، ويفرد الصحيح منها بالتدوين، مع بيان وجه قوة القوى وضعف الضعيف من ذلك

٢ — تبحث مفردات القرآن بحثاً لغوياً، وخصائص التراكيب القرآنية بحثاً بلاغياً وتدون

٣ — تبحث آراء المفسرين بالرأى والتفسير بالمأثور، ويختار ما تفسر الآية به مع بيان وجه رد المردود وقبول المقبول ويفند ذلك كله

٤ — يصاغ التفسير المختار مستوفياً ما نص على استيفائه فى الفقرة الثانية من القواعد السابقة؛ وتكون هذه الصياغة بأسلوب مناسب لأفهام جمهرة المتعلمين خال من الاغراب والصنعة

التوزيع

نظراً لظروف أعضاء اللجنة وتحقيقاً للتعاون رئى أن تقوم لهذه الأعمال الأربعة جماعتان فقط: أولاهما تقوم ببحث أسباب النزول والتفسير بالمأثور وبحث آراء المفسرين بالرأى وما يستنبط من الآية. الخ. وتتألف من فضيلة رئيس اللجنة وحضرات الأساتذة جاد المولى بك، وأحمد أمين، وأمين الخولى، والشيخ على الزنكلونى، والشيخ محمود شلتوت

وثانيتهما تقوم ببحث المفردات اللغوية والأوجه البلاغية كما تقوم بالصياغة الأخيرة للتفسير الذى يختار؛ وتتألف هذه الجماعة من حضرات الأساتذة على الجارم بك، ومصطفى عبد الرازق، والشيخ ابراهيم حمروش

على أن تقدم الجماعة الثانية بحثها أولاً فى المفردات اللغوية والأوجه البلاغية للجماعة الأولى التى تتقاسم بينها أعمالها وتقدم تقارير بها، وما يستقر عليه الرأى فى اختيار المعنى يعرض على اللجنة العامة مجتمعة فتنتهى فيه إلى قرار يقدم بعده الى الصياغة فتنجزها الجماعة الثانية وتعرضها على اللجنة العامة مجتمعة ليقر إقراراً نهائياً مع ملاحظة أن كل خطوة يتم بحثها يطبع ماتم فيها ويوزع على أعضاء اللجنة جميعها ليدرسوه قبل مناقشته فى اللجنة العامة

التفسير المختصر

تقرر كذلك أن تضع اللجنة بعد الفراغ من تفسير كل آية أو آيات موجزاً يختصر من التفسير الأول اختصاراً دقيقاً فى جلاء ووضوح يفرد وحده ويكتب فى كتاب خاص

وفاة شاعر تركيا الكبير محمد عاكف بك :

فى ٢٩ من ديسمبر الماضى استعز الله بالشاعر الكبير محمد عاكف بك أستاذ اللغتين التركية والفارسية فى كلية الآداب بالجامعة المصرية، وكانت علته الفادحة قد اضطرته إلى اعتزال هذا المنصب فى يونيو سنة ١٩٣٦ والسفر إلى الآستانة حيث قضى نحبه بين قومه. كان الفقيد أستاذاً فى جامعات تركيا قبل الانقلاب، وزاول الصحافة زهاء ثمانية عشر عاما أصدر فى خلالها مجلتى (صراط مستقيم) و (سبيل الرشاد)؛ وكان إلى ذلك عضواً فى المجلس الوطنى أثناء حرب الأناضول

ولا تزال قصائده الوطنية وأناشيده الحماسية التى نظمها فى ذلك الحين تعلق بالقلوب وتجرى على الألسن. ومن روائعه الخالدة فى الأدب التركى قصيدة (جناق قلعة) التى وصف فيها موقعة الدردنيل وصفاً بليغ المعرض شديد الروعة؛ وقصيدته فى رحلته من نجد إلى المدينة؛ ثم نشيده الوطنى الذى يردده ملايين

الأتراك . وقد اشتمل ديوانه على خمسة أجزاء نشرها جميعاً تحت عنوان (صفحات)

وفد إلى مصر منذ أربعة عشر عاما لازم فيها المغفور له الأمير محمد عباس حليم ؛ وقد نظم في مصر والمصريين قصائد رائعة ، منها قصيدته (مع فرعون) . وعسى أن تتهيأ الفرصة لصديقه الحميم الوفي الدكتور عبد الوهاب عزام فيجلو لقراء « الرسالة » نواحي أدبه بعد مماته ، كما أمتعهم بروائع شعره في حياته .

كتاب الأشباح :

صدر أخيراً في انكلترا كتاب طريف مدهش مما عنوانه : « قصص حقيقية عن الأشباح » True gohost Stories بقلم المركيزة تونز هند أوف ريبهام والسيدة مود فولكس ؛ وطرافة هذا الكتاب في أن هذه القصص التي يحتويها ليست قصصاً خيالية من مبتكرات مؤلفتها ، وإنما هي قصص حقيقية واقعية تؤيدها المركيزة تونز هند بكثير من الأدلة والشواهد ؛ وهي في مجموعها تدور على العلاقة بين الأحياء والأموات ، وعلى الاتصال بأرواح الذاهبين ومثولها في كثير من الأحيان . والمركيزة تونز هند مؤلفة هذه المجموعة هي من أشهر المشتغلات بمسائل الأرواح والغيب ، ولها في ذلك تجارب شهيرة ؛ وهي تقيم منذ أعوام في دار اشتهرت منذ بعيد بما يسكنها من الأشباح والأرواح ، وهي دار ريبهام وتعرف في مقاطعة نور فولك « بالبيت الأعظم » ؛ وقد كانت هذه الدار مسرحا لأكثر من مأساة دموية ، ولها شهرة مرعبة في جميع الأنحاء المجاورة

وإذا كانت تلاوة قصص الأشباح المختلقة تثير الدهشة والجزع أحياناً ، فأن تلاوة هذه القصص الحقيقية تثير الروعة والرعب في الأذهان المؤمنة

وفاة الشاعر والفيلسوف الاسباني أومانومو

من أنباء أسبانيا الأخيرة أن الفيلسوف الكاتب الشاعر الاسباني الكبير ميجويل دل أومانومو مدير جامعة شلمنقه (سلامانكا) قد توفي في الثاني من يناير . وكان مولده بثغر بلباءو في سنة ١٨٦٤ ؛ ودرس دراسة جامعية حسنة ، وبدأ أستاذا للغة اليونانية في جامعة شلمنقة سنة ١٨٩١ ؛ واشتغل منذ حداثته بالشعر والأدب ، ودرس الفلسفة دراسة مستفيضة .

وأخرج في سنة ١٩٠٧ ديوانه ، « Poesies » فلقي تقديراً عظيما ، وتبوأ أومانومو مكانته في الطليعة بين شعراء أسبانيا المعاصرين . وعالج أومانومو كتابة القصة أيضاً ؛ وأخرج منذ سنة ١٨٩٧ قصته الشهيرة : « السلام في الحرب » وفيها يصف مسقط رأسه ، ومشاهد صباه ؛ ثم اتبعها بقصة عنوانها « من بلادي » ، ثم بقصة « المركيز دي لومبريا »

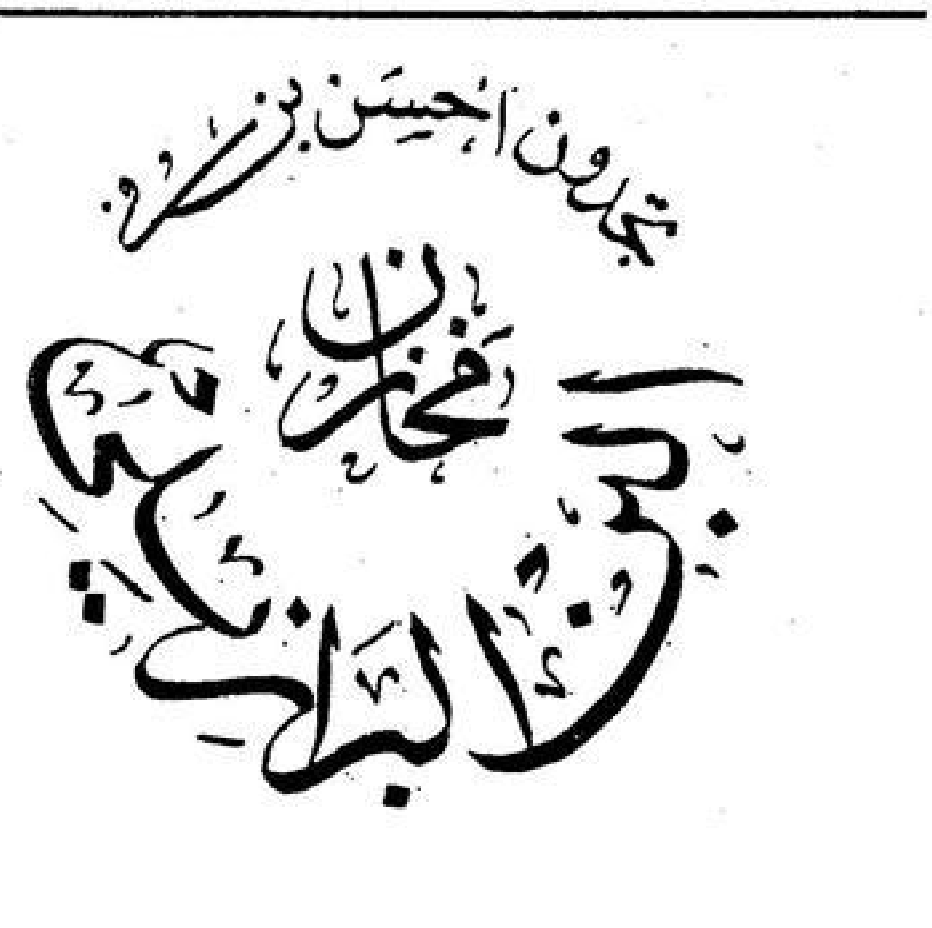
بيد أنه اشتهر على الأخص بمباحثه الفلسفية ، فأخرج في سنة ١٩١٣ كتابه « الشعور المؤسي بالحياة » ؛ وفي سنة ١٩٢٥ أخرج كتابه الشهير : « احتضار النصرانية » ، وأخرج أيضاً عدة كتب أخرى فلسفية ولغوية

ومنذ سنة ١٩١٤ يشغل أومانومو منصب مدير جامعة شلمنقه . وقد عزل عن كرسيه سنة ١٩٢٤ لمطاعنه اللاذعة في نظام الطغيان العسكري الذي أنشأه الجنرال دي ريفيرا ؛ ثم نفي مدى حين إلى جزر الكناري ، ثم رحل إلى فرنسا . وكتب في منفاه عدة رسائل وكتباً شائقة منها : « كيف تكتب القصة » ، ومنها كتابه المؤثر : « رومانشيرو في المنفى » ، ولما انهارت دعائم الطغيان في أسبانيا عاد أومانومو إلى شلمنقه ، وأعيد إلى منصبه الجامعي

وقد كان أومانومو من أعظم الشخصيات الأدبية التي طبعت الأدب الاسباني المعاصر بطابعها العميق

تصويب

جاء في الصفحة ٣٤ من العدد الماضي : « في الجنوب تحت السماء الحارة » وصواب الترجمة : ساعة الزوال — تحت السماء الحارة



النقد

سلسلة الموسوعات العربية

معجم الأدباء
للدكتور عبد الوهاب عزام

أخى صاحب الرسالة :

أود أن تفسح لى قليلا فى صفحات رسالتك فانى مضطر إلى التوسع قليلا فى الكتابة . وسأضنّ كما ضننتُ من قبل بصفحات الرسالة القيّمة فأقتصر على سرد أغلاط المعجم سرداً واثقاً بفهم القارئ، مكتفياً باللمحة الدالة والاشارة الموحية ، ولو استوعبت الأغلاط وأسهبت فى بيان الأدلة لكان لنا معجم آخر

أبدأ مقال اليوم بكلمة فى نقد الأستاذ الفاضل محمود مصطفى وأخرى فى نقد الأديب الكريم عبد العظيم قناوى وثالثة فى مقالات الأستاذ عبد الخالق عمر

وأود أن يتنبه الكاتبون إلى أمرين ؛ الأول : أننا فى شأن كتاب قديم يُنشر . فكل همّنا أن يكون الكتاب كما أراده مؤلفه . فاذا أثبت الناشر أو المصحح كلمة تدل القرائن على أن المؤلف لم يكتبها فهى غلط على المؤلف ولو كان لها محمل فى اللغة

والثانى : أن مقياسنا فى النقد هو اللغة التى نتعلمها ونعلّمها ونكتب بها ، ونعرف أن المؤلف كتب بها ، فالأوجه الشاذة والمحامل الضعيفة ليس لها مساغ هنا

أقول بعدُ للأستاذ محمود مصطفى :

١ — جاء فى مقدمة ياقوت : « إذ كل همه تحصيل المأكول والمشروب . » والقارئ بين أن يقرأ هَمُّه فيخرج الكلام على وجه قوىّ ، وبين أن يقرأ « هَمَّه » فيحمل الكلام على وجه ضعيف ، لأن همّ لازمة أصالة عرض لها التعدى توسّعا ، وأهمّ متعدية وضعاً ، وهى لغة القرآن . وليس من حقنا أن نعدل عن الراجح إلى غيره دون ضرورة . على أن المصححين أنفسهم اعترفوا بأن عبارة المؤلف « هَمُّه » بالضم واستدركوها فى آخر الجزء الرابع فلا موضع للجدال

٢ — وجاء فى الكتاب : « ومعاوية بفارسٍ » فقلت إنها ممنوعة من الصرف . فنقل الأستاذ عن القاموس أن فارسَ الفرسُ أو بلادهم . وقال إن التذكير والتأنيث فى أسماء القبائل والمواضع جائز فيجوز فيها الصرف والمنع . وأنا أقول : إن فارس فى عبارة ياقوت ليست الفرس أو بلادهم ، ولكنها ولاية فى الجنوب الشرقى من بلاد الفرس . فليرجع إلى الكتاب . وأما الصرف ومنعه بنية التذكير أو التأنيث فهو من مماحكات بعض النحويين . وقد جرت اللغة على تأنيث ألفاظ وتذكير أخرى ، وإجازة الوجهين فى غيرها . فلا ينبغى أن ننوى التذكير فى لفظ جرت اللغة على تأنيثه . فذلك ضرب من التأول لا حاجة إليه . وقد جرى العرب على تأنيث فارس . جاء فى الحديث : « خدمتهم فارس والروم . » وشواهد هذا كثيرة . وهؤلاء مؤرخو المسلمين هل تجد من يقول « فُتِحَ فارس » أوهم جميعاً يقولون : فتحت بالتأنيث ؟ وما رأى الأستاذ فى هذا النص : قال ياقوت نفسه فى معجم البلدان : « قال أبو علىّ : فارس اسم البلد وليس باسم الرجل ؛ ولا ينصرف لأنه غلب عليه التأنيث ... وليس أصله بعربى بل هو فارسىّ معرب بارْس »

٣ — وأما ميسرة فقال الأستاذ فيها إنها مثلثة . ولا أظنه يجادل أن المختار فيها الفتح وبه جاء القرآن . فضَبْط كلمة مثلثة على غير الوجه المختار فيها غلط . وكان على المصحح أن يتركها لاختيار القارئ أو يعين الوجه المختار فيها . على أن المصحح اعترف فى مقالة له بالمقطم أن « ميسُرة » غلط مطبعى . فان أراد الأستاذ من بعدُ أن يجادل فيها فليجادل المصحح نفسه

٤ — جاء فى ياقوت « لغوياً نابهاً ثَبَتاً » فقلت الصواب : « ثبْتاً » بالسكون . والثبَت بالفتح البرهان اسم لا وصف . فقال الأستاذ : إن القاموس أجاز فيها الفتح ، وظن أنى وهمت

حين قرأت قول شارح القاموس : « وقيل للحجة ثبَت بفتحتين إذا كان عدلاً ضابطاً » فذهب بالى (كما يقول) إلى أن الحجة هنا الدليل والبرهان . أقول : هل يظن الأستاذ حقاً أنى إذا قرأت هذه العبارة والشارح يقول فيها : « إذا كان عدلاً ضابطاً » يذهب بالى إلى أن الحجة هنا البرهان ؟ ثم أقول له : لا ريب أن الوصف ثبْت بالسكون ، وأن الثبَت مصدر . قال صاحب اللسان : « ورجل له ثبَت عند الحملة بالتحريك أى ثبات » . ويقال للبرهان ثبَت . قال فى اللسان : « لا أحكم بكذا إلا بثبَت أى بحجة . وفى حديث صوم يوم الشك : ثم جاء الثبَت أنه من رمضان . الثبَت بالتحريك الحجة والبينة » . فاذا قيل للرجل المتثبّت ثبَت ، فذلك كما يقال له حجّة ، وكما يقال رجل عدْل . كل هذا وصف بالمصدر للمبالغة . فأما الوصف الأصيل الدائر على ألسنة المحدثين فهو ثبْت بسكون الباء ، وهو الذى تحمل عليه عبارة ياقوت . فضبط الباء بالفتح إن لم يكن غلطاً فهو عبث

٥ — جاء فى ص ١١٥ ج ١ : أُضِقْت إضاقة شديدة الخ . قلت الصواب أَضَقت . ويريد الأستاذ محمود أن يصوبها مبنية للمفعول . كأن الرجل يقول : أضاقنى الزمان فأُضِقت أى صرت ضيقاً . وهذا تعسف لنصر الغلط على الصواب . والوجه أن يقال : أضاق الرجل كأعسر . قال صاحب اللسان : « أضاق الرجل فهو مضيق إذا ضاق عليه معاشه . وأضاق أى ذهب ماله » فما بالنا نعدل عن المنهج الواضح الى بُنيّات الطريق ؟

٦ — وجاء فى ص ٢٠٩ : نزل ثغر المُصَيْصَه . قلت الصواب : المَصّيصَه ، وقال الأستاذ إنها المِصِّيصه ، واحتج بكتابه إعجام الأعلام . وأيد حجته بقولين متناقضين : قول صاحب القاموس بأنها كسفينة ؛ وقول صاحب التقويم إنها مِصّيصة . ثم خطّأ الناقد والمنقود وجعلنى أوفر نصيباً من اللوم ؛ وأنا أحتج عليه بقول ياقوت نفسه ، قال فى معجم البلدان : « المَصِّيصَه بالفتح ثم الكسر ثم التشديد وياء ساكنة وصاد أخرى . كذا ضبطه الأزهرى وغيره من اللغويين بتشديد الصاد الأولى الخ » ومثل هذا فى اللسان . ثم أقول للأستاذ إن كان الناقد حين يخطئ أجدر باللوم من المنقود ، فما تقول فى خطأ ناقد الناقد ؟

٧ — جاء فى الكتاب ص ٢٤٠ : أنه من غُمار الناس وصغارهم . قلت الصواب : غِمار بالكسر . وصوّب الأستاذ الوجهين ، واعترف المصحح أن الكسر أولى ، وأن الضم غلط المطبعة ؛ وأنا أقول مع الأستاذ محمود إنه لم يخطئ فى هذا ولم تخطئ المطبعة

وبعد ، فأسأل الأستاذ الفاضل : ما رأيه فى بقية الغلطات التى أخذت على الجزء الأول ؟ لماذا لم يتعرض لها فى مقاله ؟ وإن كان راضياً بها فلماذا لم يصرح بهذا ؟

* * *

وأما الأستاذ عبد العظيم قناوى فقد شارك الأستاذ مصطفى فى كلمتى « هَمَّه وميْسُرة » . وقد تقدم الكلام فيهما . وبقى من ردّه قوله فى البيت :

أمفطرٌ منى على بصرى بالحب (م) أم أنتِ أكمل الناس حسنا

إن هذا الضبط جائز — وهذا غلط بيّن ، فالشطر الثانى خطاب لامرأة . وهو لا يستقيم مع هذا الضبط . ثم المسألة ليست مجالاً للرأى بل هى رواية يجب أن تتبع ، والبيت فى كتب الثقات كما رويته . وقد اعترف المصححون أنفسهم بالوجه الصحيح الذى نبّهتُ اليه

وقوله إنه يجوز فى « أما كسهم وتزيدوننى » حذف النون . وذلك حمل للكلام على الأوجه الشاذة . وقد تقدم القول فيه

وجاء فى الكتاب ص ٢١٢ .

يخال بأن العرض غير موفر عن الذم إلا أنه يُذال له الوفر

فقلت الصواب يذال — وقال الأستاذ « ويدال ليست خطأ بل لعلها أوقع فى المعنى الخ » وأنا أقول إنها خطأ لأن البيت فى مدح رجل . ومعناه أن هذا الممدوح يظن أن عرضه لا يبرأ من الذم إلا إذا بُذل ماله وأُذيل أى امتهن — وإذا قُرئت « يدال » كان البيت ذما . ويكون معناه أنه يظن أن عرضه لا يسلم إلا إذا أديل له المال أى صار غنياً . وهذا ليس من المدح فى شىء

وأختم بشكر الأستاذ على حسن ظنه ، ولومه على مبالغته فى الثناء علىّ . والله يهدينا جميعاً للتى هى أقوم

* * *

وأما أستاذنا عبد الخالق عمر فقد وجهت اليه كلة بارّة فى

المقال السابق ، ثم اطّلعت على مقالات له فى المقطم . وأنا أسأل الله أن يعيننى على تناسى هذه المقالات . وأرى أن من الخير لى وله ألا أناقشه فيما قال . فسأستمر فى نقدى فارضاً أننى لم أقرأ ما كتب متمنيا أنه لم يكتب

ثم أعود الى الموضوع متمماً نقد الجزء الثانى من الكتاب ، وقد وعدت فى المقال السابق أن أبين ما أخذته على تعليق الناشرين ، ولكنى أتقدم بتبيين أغلاط كتبتها ثم سهوت عن الحاقها بأخواتها فى ذلك المقال

ص ١٩٩ : قول البديع ردّ على الخوارزمى هجاء الصحابة

هلا نهتك الوجنة الموشومه   عن مشترَى الخلد ببئر رومه

والصواب مشترِي بالكسر . ومشترى الخلد الخ هو عثمان ابن عفان ، وقصة شرائه بئر رومة فى المدينة ووقفها على المسلمين معروفة . ثم هذا البيت لم يستحق تفسيرا من الناشرين الذين يكلفون فى مواضع أخرى بأن يفسّروا الماء بالماء

ص ٢٣٧ : فقال هذا زنبيل الحوائج الخ — وفى الحاشية : وفى الأصل زبيل الحوائج تحريفاً — أقول التحريف ما فعله المصححون ، فأما الزبيل فهو أفصح من الزنبيل أو هو معربه ، وقد اقتصر عليه صاحب القاموس ولم يذكر الزنبيل ، وذكره صاحب اللسان بعد الزبيل ثم قال : وقيل الزنبيل خطأ وإنما هو زبيل اهـ . وقال المعرى :

أيها الجامع الكنوز أزرّ   أم زبال من نخلة فى زبيل

وأما الحوائج فالظاهر أنها جمع حالجة المرأة تحلج القطن ، وزبيل الحوالج يجمع فيه ندافة القطن ، وقد جُعل فى الكتاب مثلا فليرجع إليه

ص ٢٤٢ : فى أخبار جحظة البرمكى أنه كان يلقب خَنْبا كر وفى الحاشية : « كلمة فارسية معناها المغنّى » . وهذا التفسير صحيح ، ولكن كيف ضبطت الكلمة هذا الضبط ؟ هل أجراها المصححون مجرى الأعلام الأعجمية وجروا فيها على المذهب الذى نشر فى المقطم فأجازوا فيها كل تحريف ؟ والصواب خُنيا كر

ص ٢٥٨

ماذا ترى فى جَدْىٍ   وفى عقار بوارد
وقهوة ذات لون   يحكى خدود الخرائد

والوزن لا يستقيم فى الشطر الأول فينبغى أن يكون : ماذا ترى فى جُدَىّ — تصغير جدى . ولا يضره الصغر إذا كان لحمه لذيذاً

ص ٢٧٢ : قول جحظة البرمكى فى قصة رجل أعطاه ثيابا وعتيدة وهى وعاء للطيب : « فخرجت كأنى لص قد خرج من بيت قوم ، على قفا غلامى الثياب والعتيدة كارة » والكارة رحل الثياب . فرأى المصحح أن يحذف كلمة « كارة » كرها ويضع مكانها كلمة « كلها » وكتب فى الحاشية : كانت رواية الأصل كارة ، ولا معنى له » وقد عرف القارئ أن له معنى وأن المصحح غيّر متن الكتاب غلطا ، وقدمت لهذا نظائر وسيأتى :

ص ٢٧٩ : قول جحظة :

يا من دعانى وفر منى   أخلفتَ والله حسن ظنى
قد كنت أرضى بخبز رزّ   وملح أو قليل بُنّ

وأرى أن الصواب فى القافية الثانية بُنىٍّ بالياء . وهو ضرب من السمك لايزال معروفا بهذا الاسم فى مصر والعراق . وفى بعض الأغانى العامية المصرية بنى يا سمك بنى . وليت الناشرين فسروا كلمة بُن هنا فهى فى حاجة الى التفسير

ص ٢٨٠ يقول بعض الشعراء إلغازاً عن الدواة والأقلام :

أحاجيك . ما قبر عديم ترابه   به معشر موتى وإن لم يكفّنوا
سَلَوْتُ عن التبيان مدة قبرهم   فان نبشوا يوماً من الدهر بيّنوا

وهو إلغاز عن الأقلام فى الدوىّ القديمة

والتحريف فى كلمة سَلَوْتُ ، والصواب سُكُوتٌ الخ

ص ٢٨٣ فى الكلام عن أبى نصر الباهلى الذى يقال إنه ابن أخت الأصمعى : « وكان أثبت من عبد الرحمن يعنى ابن أخت الأصمعى وأسن » . والمعروف أن عبد الرحمن ابنُ أخى الأصمعى لا ابن أخته . وصاحب الأمالى يكثر الرواية عن عبد الرحمن عن عمه (الأصمعى)

ص ٢٨٥ وكان يسكن باب الأزَجّ . والصواب الأزَج بغير تشديد . وهو اسم محلة كبيرة كانت فى الجانب الشرقى من بغداد

ويضيق مقال اليوم عن الكلام فى مآخذ التعليق على هذا الجزء فوعدنا العدد الآتى إن شاء الله . والله ولى الهداية إلى الصواب

عبد الوهاب عزام

العالم المسرحي والسينمائي

شركة أفلام الشرق

وجهودها في اخراج « نشيد الأمل »

تقرر أن يعرض فلم نشيد الأمل في يوم الاثنين ١٢ يناير سنة ١٩٣٧ بسينما رويال ، والمعروف أن هذا الفلم لم يستغرق في إعداده أكثر من ٨٠ يوماً ، وهذه المدة القصيرة تشهد بالجهود الكبيرة التي بذلها رجال الشركة في إخراج هذا الفلم العظيم .

ويقول رجال الشركة إن الفضل في هذا التوفيق يرجع إلى معاونة العناصر الفنية في مصر وتضافرها على نجاح هذا الفلم ؛ فأولا استديو مصر — ذلك البناء الشامخ الذي يعتبر الدعامة الأولى في نهضتنا السينمائية والذي خطا بصناعة الأفلام خطوة جريئة واسعة — وضع تحت تصرف الشركة كامل معداته الحديثة وجهد فنانيه ، فقاموا بأحسن ما في وسعهم من جهد فني

فالتصوير قام به سامي بريل المصور الأول للاستديو فجاء متقناً بديعا ، وتسجيل الصوت قام به مصطفى والي يعاونه عزيز فاضل فجاء واضحا جليا ، وبناء المناظر (الديكور) قام به ولي الدين سامح يعاونه يوسف بهجت فكان شاهداً على حسن الذوق والدقة ، والتنكر (الماكياج) قام به ستراتج الروسي يعاونه حلمي رفله المصري الذي اشترك في أكثر الأفلام المصرية نجاحا

أما الاخراج فكان من نصيب الأستاذ أحمد بدر خان وهو شاب وديع هادىء مفكر يشع الذكاء من عينيه ، وقد كان بين أوائل المصريين اهتماما بفن السينما ؛ وهو مبعوث شركة مصر إلى فرنسا لدراسة هذا الفن . ونشيد الأمل هو أول عمل فني يقوم بادارته ؛ وطبيعي أنه ركز كل قواه ومعلوماته في هذا الفلم حتى جاء تحفة رائعة . وقد عاونه في عمله صديقه الشاب جمال مدكور

هذا والفلم يحوي عدا الآنسة أم كلثوم مجموعة من خيرة الممثلين في مصر وعلى رأسهم الأساتذه زكي طليمات مبعوث الحكومة المصرية لدراسة التمثيل في أوربا وعباس فارس وفؤاد شفيق وغيرهم من كبار ممثلي الفرقة القومية وممثلاتها

الفاكهة المحرمة

للأستاذ أحمد عبد الرحمن قراعه المحامي

والأستاذ محمد السوادي

وأخيراً بعد صراع عنيف بين لجنة قراءة الروايات في الفرقة القومية ، وبين المؤلفين قدر لهذه المسرحية أن تظهر على مسرح الأوبرا ، وأن يستمتع الجمهور بمؤلفة مصرية ممتازة نالت رضا رواد المسرح واستحسانهم ، لأن الرواية تمس جانباً من حياتهم .

ولعل في النجاح الذي تعاون عليه المؤلفان وممثل الدور الأول الأستاذ أحمد علام ما يحمل الفرقة القومية ورجال اللجنة تعطي الأفضلية للروايات المصرية ، فليس من شك أن الفاكهة المحرمة نالت من الاقبال مالم تنله الروايات الأخرى في هذا الموسم

لئن عيب على المسرحية المصرية أنها ما برحت تفتقر إلى الطابع الأصيل الذي يميزها عن الروايات الغربية لخلو أدبنا القديم من هذه الصورة من الأدب ، فان هذه الرواية تختلف عن هذا النوع ، إذ تتميز بهذا الطابع تميزاً ظاهراً ، فهي قطعة من صميم الحياة والبيئة المصرية ، تتصل بحياتنا وتقاليدنا وروحنا أوثق اتصال ؛ وهي تقوم على الصراع بين الشباب الذي يأبى لنفسه أن يهن أمام الشيخوخة التي لا تعرف من الدنيا إلا الاعتزاز بالثروة ، وعلى الصراع بين المنطق المستمد من الحكمة وجموح الرغبة ، ولكن ... في ظل التقاليد !!!

ليس من شك في أن أدبنا يفتقر إلى الوراثة المهذبة في فن صياغة المسرحية ، فليست لنا تقاليد ولا آثار سابقة كما قلنا ؛ ولهذا فان كتابنا الذين يمالجون المسرحية ما برحوا يأخذون بتقاليد المسرح الغربي وينحون نحوه . فالمؤلف في مصر يقف بين ثقافتين الثقافة اللاتينية والثقافة السكسونية ؛ فالأولى تهتم بالمفاجآت والحركات المسرحية المتصلة والشخصيات المشتبكة المعقدة ؛ والثانية تعنى بخلق الجو الهادىء والشخصيات الواضحة البسيطة

فضل مؤلفا هذه المسرحية الثقافة اللاتينية ، بل قل المدرسة الفرنسية ، فجعلا الحوادث تتجدد ، وجاءا بشخصيات تعاون على ابراز الشخصيات الرئيسية في المسرحية ، وبهذا كثرت الحركة المسرحية والنشاط ؛ ولكن في رأيي أنهما لو سلكا الطريق الآخر وأعطيا هذه العناية للشخصيات الرئيسية لكان توفيقهما أتم . فهذه شخصية (فاضل) ذلك الصديق الذي يحب (درية) وشخصية (زوزو) ابنة صاحب الجريدة التي تحب (حسن) لو فكر المؤلفان في الاستغناء عنهما أو الاستغناء عن الشخصية الثانية وتصحيح موقف الشخصية الأولى منذ بدء الفصل الثاني ، فأنا زعيم بأن ختام المناظر يكون أهدأ وأفعل في النفس أثراً ، ولرأينا صورة بارزة من المسرح المتزن الذي يجعلنا نلتذ للتكشف الهادىء للحادثة ويصدم أذهاننا فيبعثنا على التأمل والاعتبار بالحوار ومناقشة الرأي . ولو أن لي أن أشير بنصيحة لطالبتهما بهذا الاصلاح

على أن هـذا الرأي قد يكون متأثراً بعض الشيء بثقافتي السكسونية وحبي للمسرح الانجليزي ، ولكني ألقي به مع اعتقادي بأن المسرحية قطعة أدبيـة ممتازة بشخصياتها الرئيسية الكاملة التصوير ، والجو المصري الخالص الذي تعيش فيه هذه الشخصيات ، والأسلوب الرائع الملموس في نواحي المسرحية

اشترك في تأليف المسرحية الأستاذان أحمد عبد الرحمن قراعة المحامي المعروف ومحمد السوادي الصحفي ؛ وقد يصعب على الناقد أن يفرق بين عمل مؤلفين أتما رواية واحدة معاً ، ولكن المسرحية من حيث الأسلوب وطريق التفكير والشخصيات تنم عن قراعة أكثر مما تنم عن زميله

يقول « بيفون » الكاتب الفرنسي الكبير : إن الأسلوب هو الرجل . وليس من شك في أن أسلوب قراعة القوي قد نم عليه ، وليس الأسلوب وحده ، بل كذلك الشخصيات وطريق التفكير ؛ والمأساة تدل على أن له النصيب الأوفر في هذا العمل

فنحن نرى الشخصيات تنحني أمام قوة التقاليـد ، وحتى حسن ودرية ، وهما من أصحاب الثقافة العالية ، لا يفكران في الثورة على التقاليد والنظم بل يخضعان ويقبلان التضحية من أجل والديهما ؛ ثم النهاية القاسية التي تفرق بين حسن ودرية ، لأن الشرع يحول دون زواجهما — تنم عن روح قراعة ربيب بيت التقاليد وبيت الافتاء

الإخراج والتمثيل

ظهرت هذه المسرحية من غير مخرج ، فقد كانت من نصيب الأستاذ زكي طليمات ، وقد بدأ فعلا في تدريب الممثلين ، فلما ترك الفرقة وقامت العقبات في سبيل ظهور هذه المسرحية أهملت ، وأبى الأستاذ عزيز عيد أن يتم إخراجها ، فقام الممثلون أنفسهم بهذا العمل وعاونهم الأستاذ أدمون توما منظم المسرح

وأفلح الممثلون في مجهودهم ، كما وفق الأستاذ أدمون توما في اختيار المناظر واختيار ألوان الضوء وتوزيعه كما يتناسب وجو المسرحية . وأقرر أن هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها مسرحية مصرية اكتمل فيها الضوء وكان عونا للممثلين ؛ وأرجو أن تهتم الفرقة بهذه الناحية ، وتسند إلى الأستاذ توما الاضاءة دائماً

قام الممثل الأستاذ أحمد علام بالدور الأول ، فكان لظهوره رنة فرح بين جمهور المعجبين به الذين احتجب عنهم زمنا غير قصير . ولقـد أظهر براعة فائقة في دور حسن بك . وإني لأذكر له موقفه البديع في الفصل الأول وهو يكاشف درية بحبه ، وفي الفصل الثالث بعد عودته الى البيت وحديثه مع درية زوجة أبيه ، ذلك الحديث الهادىء الذي يدل على مايضطرم في نفسه من شتى الاحساسات ، إحساسات الألم والحب المكبوت وما إليها . وكذلك في الفصل الرابع وهو يتحدث مع شقيقته ، وبعدها وهو يتحدث الى درية ، ويعرف أنها تضمر له الحب ، يسمو في هذه المواقف ويصـل الى قلوب النظارة فيحركها بالألم

ويأتي بعد علام في النجاح السيدة ثريا فخري التي مثلت دور الدادة ، فقد وفقت فيه توفيقاً كبيراً وأدته أداء طيباً يعجز ممثلات الفرقة عن إدراكها فيه . وكان سراج منير موفقاً في إبراز شخصية والد درية . وكانت (روحية خالد) بديعة في تأدية دور شقيقة حسن ، وكانت حسـنة الالقاء خفيفة الظل ، كما كان محمود رضا عذب الروح في دور نسيم أفندي مضحك الأسرة

وقامت الآنسة فردوس حسن بدور درية ، وهو الدور الأول في هذه الرواية ، فبذلت مجهوداً لا بأس به ، إلا أنها لم تعن العناية الكافية بابراز عاطفتها وإحساساتها في شتى المواقف ، وأن تكون أقل سرعة في إلقاء كلماتها . والأسـتاذ منسي فهمي قام بدور محي بك ، ويخيل إلي أنه لم يهتم به اهتمامه بأدواره السابقة ولم يعره جانب عنايته ، ولكنه في الفصل الرابع أبدى بعض العناية فأنقذ الشخصية في النهاية

يوسف تادرس
الناقد الفني